T.C.
GAZİ ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ
ARAP DİLİ EĞİTİMİ ANABİLİM DALI

EBÛ BEKR EL-HÂRİZMÎ VE RİSÂLELERİ

MASTER TEZİ

108783
Eğt&01

Hazırlayan
Recep ÇİNKILIÇ

T.C. YÜKSEKÖĞRETİM KURULU
DOKÜMANTASYON MERKEZİ

Tez Danışmanı
Prof. Dr. Azmi YÜKSEL

Ankara-2001

الجمهورية التركية
جامعة غازي
معهد العلوم الاجتماعية
قسم تعليم اللغة العربية

أبو بكر الخوارزمي ورسائله

رسالة ماجستير

إعداد
رجب چينقليچ

إشراف
الأستاذ الدكتور/ عزمي يوكسل

أنقرة - ٢٠٠١

المحتويات

المقدمة ث

الاختصارات ج

التمهيد

الوضع السياسي في عهد الخوارزمي ٢

النثر في العصر العباسي ٦

أساليب النثر وصياغته ٨

الفصل الأول

أبو بكر الخوارزمي: حياته وأدبه

أ- حياته ١٣

١- أصله ومنشأه ١٣

٢- علاقاته مع سيف الدولة الحمداني ١٣

٣- رحلاته ١٤

٤- عند الصاحب بن عباد ١٦

٥- عند عضد الدولة بشيراز ونكبته في نيسابور ١٩

٦- عودته إلى الصاحب بن عباد ٢١

٧- علاقته مع أبي الحسين المزني وأبي القاسم المزني ٢٢

٨- مذهبه وعقيدته ٢٣

٩- أخلاقه ٢٦

ب- المناظرة بين الخوارزمي والهمذاني ووفاة الخوارزمي ٢٨

ج- الخوارزمي الشاعر ٣٦

د- مؤلفاته ٤٢

الفصل الثاني

رسائل الخوارزمي

موضوعات الرسائل ٤٥

الجمل الابتدائية ٥٢

الجمل الاعتراضية ٥٣

الألفاظ والعبارات ٥٤

خاتمة الرسائل ٥٧

أسلوب الخوارزمي وسلاطة لسانه ٥٨

التصنع وتصنيع الخوارزمي ٦٠

فنون أدبية في الرسائل ٦٠

السجع والبديع في الرسائل ٦٧

الرسائل من حيث انعكاس الحياة السياسية ٧٢

الرسائل من حيث انعكاس الحياة الاجتماعية ٧٤

الخاتمة ٧٧

المراجع ٧٩

المقدمة

تناولت في هذه الرسالة حياة الخوارزمي ورسائله التي كتبها إلى أصدقائه وتلاميذه وإلى الوزراء والحكام. ومما لا شك فيه أن الخوارزمي يعتبر من أعلام النثر والنظم في العصر العباسي. ولسوء الحظ لم يصل إلى يومنا من مؤلفاته إلا مجموعة رسائله وأشعاره التي جمعها الثعالبي في يتيمته.

وفي التمهيد من الرسالة قدمت موجزاً عن الوضع السياسي في العهد العباسي ولا سيما القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه الخوارزمي كما قدمت فيه معلومات حول الأدب العربي في عصر الخوارزمي من ناحية النثر عامة ومن ناحية الرسالة الأدبية خاصة.

وتناولت في **الفصل الأول** من الرسالة حياة الخوارزمي ومؤلفاته، وفي **الفصل الثاني** حاولت تقديم رسائله من عدة نواح من حيث الموضوعات والأسلوب ومنها من حيث انعكاس الحياة السياسية والاجتماعية.

وفي الختام، أقدم أسمى شكري وامتناني **للأستاذ الدكتور عزمي يوكسل** (Prof. Dr. Azmi YÜKSEL) **وللأستاذ الدكتور رحمي أر** (Prof. Dr. Rahmi ER) الذين ساعداني في جميع مراحل تدوين هذا البحث. كما أقدم شكري لكل من لم يبخل بتقديم العون والمساعدة في إعداد البحث.

أنقرة – ٢٠٠٠ **رجب چينقليچ**

الاختصارات

ب.ت.	: بدون تاريخ
م.	: المترجم
ج.	: المجلد
ط.	: الطبعة
ت.	: وفاته
مصطفى ...	: أحمد أمين مصطفى
رسائل ...	: أبو بكر الخوارزمي، رسائل أبي بكر الخوارزمي، إستانبول، ١٢٩٧.

التمهيد

التمهيد

الوضع السياسي في عهد الخوارزمي

سقط الأمويّون في الشام فتولى العباسيّون الخلافة وكان مؤسس هذه الدولة أبا العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ). ونقلت قاعدة الدولة من دمشق إلى بغداد على حدود فارس وكذلك تحول وجه الدولة عن البحر الأبيض المتوسط وتوجه شطر فارس. وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق.[١]

ومن الممكن تقسيم العصر العباسي من حيث الأحداث التاريخية إلى ثلاثة عصور:

الأول: بدأ من سنة ١٣٢ إلى سنة ٣٣٤ هـ، وبدأ العصر الثاني من استيلاء بني بويه وهم من الفرس على بغداد إلى انتزاع السلاجقة وهم من الأتراك للحكم منهم. وهذا العصر من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ.[٢]

وفي عهد بني بويه الذي عاش فيه الخوارزمي نضجت العلوم على اختلاف أنواعها، وإذا كان العصر العباسي الأول عصر ازدهار البلاغة فإن العصر العباسي الثاني هو العصر الذهبي للعلوم والتأليف.[٣]

١- الفاخوري، حنا، **تاريخ الأدب العربي**، بيروت، ١٩٦٠، ط. الثالثة، ص ٣٤٩-٣٥٠.

٢- كحالة، عمر رضا، **الأدب العربي في الجاهلية والإسلام**، دمشق، ١٩٧٢، ص ١٩.

٣- **المصدر نفسه**، والصفحة نفسها.

«وعاصرت الدولة البويهية دول أخرى فارسيّة مشتقة من الدولة العباسية، استقل بها ولاتها لما شعروا بضعف الخلفاء، منها الدولة السامانية بتركستان ٢٦١ - ٣٨٩ هـ، والدولة الزيارية بطبرستان ٣١٦ - ٣٤٣ هـ.، والدولة الإخشيدية بمصر ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ.، والغزنوية بأفغانستان، والهند ٢٩٢ - ٣٨٠ هـ، ودول عربية كالفاطمية بمصر ٣٥٧ - ٥٦٧ هـ، والحمدانية بالشام من ٣١٧ - ٣٩٤ هـ.»[٤]

والعصر الثالث من العصر العباسي بدأ من استيلاء السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ إلى دخول المغول فيها سنة ٦٥٦ هـ.[٥]

النهضة العباسية هي النهضة الثانية بعد النهضة الجاهلية والأموية. وقد قامت النهضة العباسية على احتكاك العرب واختلاطهم بالفرس والروم والهنود والإسبان وغيرهم، وعلى امتزاج الثقافات والمذاهب، خاصة بالترجمة، وتاريخ الفرس وحضارتهم ونظمهم، وحكمة الهنود وأساليبهم.[٦]

كانت البيئة الثقافية أقوى العوامل في النهضة العباسية إذ أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في شتى نواحيها ويمدونها بمالهم. وقد بالغوا في إكرام الأدباء، وولوهم المراكز العالية.وظهر في هذا العهد ميل شديد إلى الحياة العلمية.[٧]

٤- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٥- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٦- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص ٤٥.

٧- المصدر نفسه، ص ٣٥٤.

ولعل أكبر حركة في الشام في الأدب واللغة، كانت في ذلك العصر عند الأمراء الحمدانيين في حلب، ولا سيما أيام سيف الدولة. شجع سيف الدولة على النهوض بالأدب والعلم وعرف الأدباء والشعراء. وكان مجلس سيف الدولة مجلسًا ممتازاً، منح ذوقًا وقدرة على فهم الأدب وإدارة الحديث في المجالس.[٨]

ثم جاءت الدولة الفاطمية سنة ٣٥٧ هـ.، فبسطت سلطانها على مصر والشام، وتقدم العلم والأدب والفن في مصر والشام خطوات، كما تقدم النثر الفني مع ميل إلى الزينة من سجع وبديع.[٩]

والأدب العربي في العراق وجنوبي فارس في عهد الدولة البويهية الفارسية (٣٢١-٤٤٧هـ)، فقد نبغ أربعة من كبار الكتاب: اثنان في الجزء الفارسي الجنوبي وهما ابن العميد والصاحب بن عباد، واثنان في العراق، هما أبو إسحاق الصابي وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف.[١٠]

قد خدمت الدولة البويهية العلم والأدب خدمة كبرى، ومع أنهم فارسيوا الأصل وأكثر وزرائهم كابن العميد والصاحب بن عباد من الفرس، فقد كانوا يتعصبون في العلم والأدب للسان العربي.[١١]

٨- كحالة، عمر رضا، المصدر السابق، ص ٣٢.

٩- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

١٠- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

١١- المصدر نفسه، ص ٣٣.

ومن الممكن أن نجد في الدولة البويهية بوضوح، وهي أن أساس الاختيار للوزارة كان عماده شيئين: القدرة الإدارية والقدرة البلاغية، فكان الوزراء عماداً عظيمًا للأدب والأدباء.[١٢]

وتضاف إلى ذلك أن الخصومات والحروب بين الفرق البويهية المنقسمة على بعضها والتجاء كل فريق إلى جانب، فكان إذا انهزم هذا الفريق نكل الغالب بأتباع المغلوب، ومن أجل ذلك لقي كثير من أهل الأدب من المصادرة والتعذيب والقتل.[١٣]

وازدهرت بلاد خراسان في عهد الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩ هـ). وأصل ملوك هذه الدولة فارسي. وكان في عهد هذه الدولة حركة أدبية قوية من شعر ونثر. والأمراء السامانيون كانوا من الأدباء فقد عمدوا إلى إنشاء الأدباء لحماية الأدب، فشجعوا الحركة الأدبية.[١٤]

١٢- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

١٣- المصدر نفسه، ص ٣٤.

١٤- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

النثر في العصر العباسي

نرى أن النثر في هذا العصر بدأ بأسلوب الأمويين وراح النثر في ضوء الحضارة الجديدة، فظهرت فيها آثار المدنية العباسية والتفكير العباسي ولكن ضعفت الخطابة في هذا العهد وذلك لضعف الدواعي إليها ولضعف القدرة عليها وانصرف الناس إلى الثقافة والكتابة للإقناع.[١٠]

وقامت الدولة العباسية على أساسين: هما الدين والاعتزاز بالموالي. ومن أجل ذلك حرص الخلفاء أن يؤموا الناس في الصلوات الجامعة. وشاع في ذلك العصر القصص والوعظ وهو من موافق الخطابة ومع قلة الدواعي إلى الخطابة ضعف شأن الخطابة بعد المائة الأولى من عمر هذه الدولة.

زها الأدب العربي في القرن الرابع الهجري بقسميه المنثور والمنظوم، وقسم المنثور في هذا العصر قسمين: السلطانيات وهي المكاتبات الرسمية التي تصدر من وزير إلى عامل أو من خليفة إلى عامل أو من عامل إلى عامل، والإخوانيات وهي التي تصدر من صديق إلى صديق أو من أستاذ إلى تلميذ في الشؤون الخاصة.[١١]

أما الكتابة في العصر العباسي فتنوعت وتعددت أساليبها واختلفت خصائصها. ومن الممكن تقسيم الكتابة إلى قسمين: هما كتابة الإنشاء وكتابة التأليف.

١٠- الفاخوري، حنا، **المصدر السابق**، ص ٣٦٥.

١١- كحالة، عمر رضا، **المصدر السابق**، ص ٣٦.

واتسعت المدنية في العهد العباسي وتعددت الدواوين. وكانت الكتابة في جميع الدواوين ما خلا ديواني الرسائل لا تتعدى التسجيل على عكس ديوان الرسائل والتوقيعات. كانت تمثل هذه الكتابة العواطف والمشاعر منبعثة عن النفوس التي تظهر فيها صور العصور.[١٧]

وتعددت فنون الكتابة في العصر العباسي فكان منها الرسائل الإخوانية في الشكر والعتاب والتعزية والتهنئة وغير ذلك. ومنها المقالات والروايات القصصية والمناظرات والمقامات ومنها التصانيف العلمية والأدبية.[١٨]

١٧- كحالة، **المصدر السابق**، ص ١٩٢.

١٨- الفاخوري، حنا، **الموجز في الأدب العربي وتاريخه**، بيروت، ١٩٩١، ٢/ ٣٩.

أساليب النثر وصياغته

أثرت الفلسفة والعلوم في النثر العباسي فاتسع مجال التفكير وامتدت العقول بتأثير النقل والترجمة. ويظهر الأثر الفارسي في كتابة العصر العباسي فمالت الكتابة إلى التفصيل والإطناب كما مالت إلى السهولة في العبارة والتأنق في اللفظ وإطالة المقومات وتنويع البدء والختام ويظهر تأثير الإيجاز بنوع خاص في التوقيعات.[١٩]

وظهرت في النثر العباسي طريقة ابن العميد وطريقة القاضي الفاضل في التزامهما السجع وكثرة المحسنات البديعية. وكثر القائمون بها حتى أصبح التأنق في البديع والتسجيع هو الغاية من الرسائل والإنشاء.[٢٠] وبدأ يتدرج النثر الفني في التنميق والزخرفة وزاد استعمال المحسنات البديعية والسجع فيه و صارت الكتابة صناعة محضة، وأصبح الكتاب في هذا العصر حافظين على أساليب البلاغة العربية. وبدأت الرسالة تتطور وتنزلق في تيار الزخرفة والتصنع حتى أصبحت ميدانًا لإظهار براعة الكاتب.[٢١]

إن لكل عصر إمامًا في إنشاء المراسلات يقلده من يعاصره. وكان ابن المقفع في العصر العباسي الأول والجاحظ في العصر العباسي الثاني. وإمام الإنشاء في هذا العصر هو ابن العميد[٢٢] والممثل الأول في إنشاء الرسائل الأدبية هو أبو بكر الخوارزمي فهو معاصر الصابي.[٢٣]

١٩- المصدر نفسه، ص ٣٤- ٤٠.

٢٠- المقدسي، أنيس ، الدول العربية وآدابها، بيروت، ب.ت. ط. العاشرة ص ١٦٥.

٢١- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص ٧١٦.

٢٢- زيدان، جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٧٦/١.

٢٣- Goldziher, İgnace , Klasik Arap Literatürü, م : Azmi Yüksel, Rahmi Er, أنقرة، ١٩٩٣، ص ٩٨.

كان ابن العميد - الذي جر على إثره الخوارزمي وتتبع طريقته - فارسي الأصل، تولى الوزارة وتوفي سنة ٣٦٠ هـ. كان يعمد ابن العميدفي كتاباته إلى الوشي والزخرف ويتخذ ألفاظًا مرصعة بالسجع. وكان يحتال في تحسين سجعه والإكثار من وشي بديعه حيلا مختلفة وكان يحتال على السجع بالقصر، فإن كان طويلاً قصره بما مرن عليه من المعادلة بين ألفاظه وكان يكثر من البديع ويحتال على اللفظة حتى يحملها وشي الطباق من جهة ووشي التصوير والجناس من جهة أخرى.[٢٤]

إن لإنشاء التراسل في العصر العباسي شروطًا قد سميت الطريقة المدرسية لأنها صارت مثالاً للكتاب.[٢٥] وأستاذ هذه المدرسة هو ابن العميد ومن تلاميذ ابن العميد الخوارزمي وأبو إسحاق الصابي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذاني. وقد جروا على طريقة ابن العميد مع زيادة في السجع والتنميق.[٢٦]

٢٤- كحالة، المصدر السابق، ص ١٩٦.

٢٥- زيدان، جورجي، المصدر السابق، ص ٥٧٩.

٢٦- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص ٧١٨.

شروط الطريقة المدرسية للتراسل العربي:

١- التزام السجع في جميع الرسائل؛ حتى الرسائل المطولة يراد بها تقييد المناظرة وكانوا يسجعون الكتاب قبل ذلك ولكنهم ما كانوا يلتزمون السجع التزامًا في كل الموضوعات. وينقسم كتاب العصر إلى ثلاثة طوائف: طائفة تلتزم السجع التزامًا مطلقًا ولا تخرج عنه إلا قليلاً، وأشهر الكتاب من هذه الطائفة بديع الزمان الهمذاني وأبو بكر الخوارزمي والثعالبي والصابي والميكالي والصاحب بن عباد وابن دريد. وطائفة تؤثر الازدواج وتسجع أحيانًا. ومن أشهر هذه الطائفة ابن العميد والتوحيدي والحاتمي. وطائفة تؤثر الحرية في الصياغة الفنية فلا تسجع إلا قليلاً وعلى رأسهم ابن فارس والجرجاني والإصفهاني.[٢٧]

٢- كثرة الجناس والبديع: لا يزيد الجناس والبديع العبارة معنى لكنه يكسب العبارة وشيًا ورونقًا، ويحلى ابن العميد عباراته ألوان البديع من طباق وجناس ويتقيد تقيداً مطلقًا بها.[٢٨]

٣- كثرة استعمال الكتاب في مراسلاتهم النكت الأدبية أو الأمثال أو الإشارات التاريخية واللغوية والعلمية.[٢٩]

٢٧- كحالة، المصدر السابق، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

٢٨- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص ٧١٧-٧١٨.

٢٩- زيدان، جورجي، المصدر السابق، ص ٥٧٧.

٤- أكثر الكتاب في تراسلهم من الاستشهاد بالأشعار، وبالغ بعضهم في ذلك حتى صار النثر شعراً.[٣٠]

٥- صار للرسائل أسلوب خاص، مثلاً تبدأ رسائل الخوارزمي والثعالبي غالبًا بمخاطبة المرسل إليه بلقبه.[٣١]

٦- تفرع التراسل إلى الأبواب وأصبحت الرسائل تقسم إلى رسائل التهنئة والتعزية وإلى الرسائل الإخوانية ونحو ذلك.[٣٢]

٧- صار الإنشاء فنا له ألفاظ خاصة وظهرت مصطلحات خاصة لأساليب الإنشاء وعباراته كالتسجيع والترصيع والإطناب والترادف والتكرار وغيرها.[٣٣]

٣٠- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٣١- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٣٢- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٣٣- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص ٧١٨.

الفصل الأول

أبو بكر الخوارزمي: حياته وأدبه

الفصل الأول

أبو بكر الخوارزمي: حياته وأدبه

أ - حياته:

١- أصله ومنشؤه:

هو أبو بكر جمال الدين محمد بن عباس الطبري الخوارزمي ولد عام ٣٢٣ هـ/٩٥٣م.[٣٤] أصله من طبرستان. ومولده ومنشؤه خوارزم.

وكان يقال له «الطبري» لأنّه ابن أخت «محمد بن جرير الطبري» المؤرخ المشهور، كما يقال له «الطبرخزي» و «الطبرخزمي» لأنّ أمه من طبرستان وأباه من خوارزم.[٣٥] ولذلك نسب إلى البلدين جميعًا والخوارزمي يذكر ذلك في رسالته أنه ليس من طبرية الشام غير أنه أقام في الشام مدة بحلب ونواحيها.[٣٦]

٢- علاقته مع سيف الدولة الحمداني

يذكر **السيوطي** صاحب كتاب **«بغية الوعاة»** أن أبا بكر الخوارزمي قد لقي سيف الدولة ابن حمدان وخدمه وانتفع بيمن حضرته.[٣٧] ولكن لا يوجد بيت واحد يمدح فيه سيف الدولة

٣٤- إستانبول ١٩٩٧، ص١٦/ ٢٢٠ Demirayak, Kenan, "Harizmi Ebû Bekir", TDV İslam Ansiklopedisi

٣٥- الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، بيروت، ١٩٩٢، ط. العاشرة، ص ١٨٣/٦.

٣٦- ابن الأثير، **اللباب في تهذيب الأنساب**، بيروت، ب.ت.، ص ٢٧٣/٢.

٣٧- السيوطي، **بغية الوعاة**، بيروت، ١٩٦٤، ص ١/ ١٢٥.

أو يذمه أو رسالة موجهة إلى سيف الدولة في رسائل أبي بكر الخوارزمي. قد ورد سيف الدولة في رسالة بعث بها أبو بكر إلى الحاجب أبي إسحاق لما نكبه الصاحب بن عباد. وفي هذه الرسالة يوجّه أبو بكر الخوارزمي اللوم إلى المتنبي لأنه مدح سيف الدولة وجعله خاتم الكرام حيث قال:

لا تطلبن كريمًا بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا

لكن فترة إقامة أبي بكر في الشام عند سيف الدولة لم تكن طويلة. لأن أبا بكر الخوارزمي شامخ الأنف لا يستقر على حال ولا يدوم له وفاء.[٣٨]

٣- رحلاته

رحل أبو بكر الخوارزمي في صباه إلى بعض البلدان.[٣٩] وقد أقام مدة في الشام وفي نواحي حلب، وانتقل إلى بخارى واتصل بأبي علي البلعمي وزير منصور (الأول) بن نوح الساماني (٣٥٠-٣٦٦ هـ.)[٤٠] ولكن لم يحمد صحبته ففارقه وهجاه بقوله:

إن ذَا الْبَلْعَمِي الْعَيْنُ غَيْنٌ وَهُوَ عَارٌ عَلَى الزَّمَانِ وَشِينُ

إِنْ يَكُنْ جَاهِلاً بِخَفِيِّ حَنِينٍ فَهُوَ الخَفُّ وَالزَّمَانُ حَنِينُ

٣٨- مصطفى، أحمد أمين، **أبو بكر الخوارزمي، حياته وأدبه**، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٥.

٣٩- كحالة، **معجم المؤلفين**، بيروت ١٩٩٣، ص ٣٨/٣.

٤٠- فروخ، عمر، **تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي**، بيروت، ١٩٩٢، ط. السادسة، ص ٥٤٤.

وذهب أبو بكر إلى نيسابور.[41] ومن هنا كتب رسالة إلى أبي علي البلعمي يتودد إليه ويعاتبه ويبين له سبب فراقه. ويبدو من هذه الرسالة أن أبا بكر ما زال يتودد إليه.ويقول في هذه الرسالة: «كتابي إلى الشيخ وقد أمضت الأيام في حكمها، وأنفذت في صبري وتجلدي سهمها. والحمد لله على كل شئ إلا على غيبتي عن الشيخ. فإني أخشى أن أزداد منها إذا حمدت الله لها. حيث انتهت بي المحنة بعد فراق الشيخ إلى غاية ليس بعينها وبين الموت حجاز ولا وراءها للبلاء مجاز.»[42]

اتصل أبو بكر في نيسابور بالأمير أبي نصر أحمد بن علي الميكالي وأكثر من مدحه ونال عطاياه الثمينة. وفي نيسابور اتصل أيضًا بالوزراء وكبار الشخصيات. ومنهم أبو الحسن الحكمي، وأبو الحسن القزويني، وأبو منصور البغوي. وبعد ذلك قصد أبو بكر سجستان. وفي سجستان حبسه واليها طاهر بن محمد زمانًا لهجائه. ومما قاله في تلك النكبة قصيدة كتب بها إلى الأمير أبي نصر أحمد بن علي الميكالي:

كِتَابِي أَبَا نَصْرٍ إِلَيْكَ وَحَالَتِي ... كَحَالِ فَرِيسٍ فِي مَخَالِبِ ضَيْغَمِ
أَرَقُّ مِنَ الشَّكْوَى وَأَدْجَى مِنَ النَّوَى ... وَأَضْعَفُ مِنْ قَلْبِ الْمُحِبِّ الْمُتَيَّمِ
غَدَوْتُ أَخَا جُوعٍ وَلَسْتُ بِصَائِمٍ ... وَرُحْتُ أَخَا عَرِيٍّ وَلَسْتُ بِمُحْرِمِ
وَقَعْتُ بِفَخِّ الْخَوْفِ فِي يَدِ طَاهِرٍ ... وُقُوعَ سليك فِي حَبَائِلِ خَثْعَمِ[43]

٤١- الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، حققه مفيد محمد قميحة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٣٤/٤.

٤٢- الخوارزمي، أبو بكر ، رسائل أبي بكر الخوارزمي، إستانبول، ١٢٩٧، ص ٣٠.

٤٣- الثعالبي، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

وذهب أبو بكر الخوارزمي إلى طبرستان وكانت حاله مع صاحبها كحاله مع طاهر بن شار، فمن قوله فيه:

أَلاَ أُبَلِّغْ بَنِي شَارٍ كَلاَمِي وَمَنْ لَمْ يَلْقَهُمْ فَهوَ السَّعِيدُ

عَلاَمَ ابْتَعْتُمْ فَرَسًا عَتِيقًا وَلَيْسَ لَدَيْكُمْ عَلَفٌ عَتِيدُ

وَفِيمَ حَبَسْتُمُ فِي الْبَيْتِ بَازًا يَحِيصُ الطَّيْرُ عَنْهُ أَوْ يَحِيدُ

فَلاَ قَرَّبْتُمُوهُ فَعَلْتُمُوهُ وَلاَ خَلَّيْتُمْ عَنْهُ يَصِيدُ"

ثم استأنف أبو بكر رحلة إلى إصفهان و شيراز ونال فيهما من الإكرام ما رجاه وترك أبو بكر سجستان عائداً إلى نيسابور واستقرّ فيها. فلما هجا الوزير العتبي صودرت أمواله. ولكنه هرب إلى جرجان. فلما قتل الوزير العتبي دعاه خلفه أبو الحسين المزني إلى نيسابور وردّ إليه أمواله.[٤٥]

٤- عند الصاحب ابن عباد

لم يبق أبو بكر الخوارزمي في نيسابور مدة طويلة وتركها فقصد الصاحب ابن عباد بإصبهان، فلما وصل بابه قال لحاجبه: قل للصاحب ابن عباد على الباب أحد أرباب الأدب، وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب فأعلمه بما قد تكلم الخوارزمي، فقال الصاحب: قل له

٤٤- المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

٤٥- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، م. عبد الحليم النجار، القاهرة، ب.ت.، ص ١١١/٢.

قد ألزمت نفسي أن لا يدخل عليّ أحد من أولي الأدب إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال أبو بكر: ارجع إليه وقل له هذا القدر من شعر النساء أم من شعر الرجال؟ فدخل الحاجب، فأعلم الصاحب بما قال الخوارزمي، فقال: هذا يكون أبا بكر الخوارزمي، فأذن له في الدخول فدخل عليه وانبسط له.[٤٦]

ويحكى في رواية أخرى أن أبا بكر دخل مجلس الصاحب بن عباد وعليه ثياب بلى، وكان ممتلئًا بالشعراء والفضلاء من أقطار الأرض، فصعد الصفة فاستخفّ الحاضرون به، فقال أحد الحاضرين ظنًا منه أن لا يعرف العربية: من هذا الكلب؟ فقال أبو بكر الخوارزمي: الكلب الذي لا يعرف عشرين لغة في الكلب. فسكت الحاضرون وأقروا له بالفضل فذكر أبو بكر لهم أسماء الكلب.[٤٧] وهذه الروايات تدل على غزارة حفظ أبي بكر الخوارزمي.

وأعجب الصاحب بن عباد بأبي بكر الخوارزمي فأكرمه وأعلى منزلته وصار أبو بكر من ندمائه المختصين به. وكان الصاحب بن عباد جوادا، وكان أديبًا يحب الأدب والأدباء. وحفلت ساحته بالشعراء والكتاب وعمتهم عطاياه. ونال أبو بكر من وابل الصاحب ما زاده تعلقًا به. ومدح أبو بكر صديقه الصاحب بن عباد بمدائح كثيرة وأشاد بجوده وفضله وعلمه. ومن قوله في الصاحب:

٤٦- اليافعي، **مرآة الجنان**، بيروت، ١٩٩٧، ص ٣١٣/٢.

٤٧- السمعاني، **الأنساب**، حققه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المقلمي اليماني، بيروت، ١٩٨٠، ط. الثانية، ص ١٩٤/٥.

يا ترجمان الليالي عن معاذرها وحجة الزمن الباقي على الفاني

يا أبحث الناس عن شعر وعن كرم يا مورث الطبع إحسانًا بإحسان.[٤٨]

أراد الخوارزمي السفر إلى عضد الدولة بن بويه بشيراز. وأوفده الصاحب بكتاب إلى عضد الدولة فكان هذا سبب انتعاش أبي بكر الخوارزمي.[٤٩]

ويذكر التوحيدي في كتابه «أخلاق الوزيرين»:

«قلت لأبي بكر الخوارزمي الشاعر، وكان قد خبره: كيف وجدت الصاحب، وقد أعطاك وأولاك وقدمك وآثرك، وسفر لك إلى عضد الدولة، وهو اليوم شاه الملوك، حتى ملأت عبابك تبراً، وحقائبك ثيابًا، ورواحلك زاداً؟ فقال:

دَعني مما هنالك، واللّه إنه لخوار في المكارم، صبار على الملائم، زحاف إلى المآثم، سماع للنمائم، مقدام على العظائم، يدعو إلى «العدل والتوحيد»، ويدّعي «الوعد والتخليد»، ثم يخلو باستعمال الأيور، ويشتمل على الفُسوق والفجور، ويمسي وهو بور ويصبح وما على وجهه نور.»[٥٠]

٤٨- مصطفى، المصدر السابق، ص ٢٣-٢٤.

٤٩- السيوطي، المصدر السابق، ص ١٢٥.

٥٠- التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، حقّقه: محمد بن تاوت الطبخي، بيروت ١٩٩٢، ٢ ١٠٧-١٠٨.

٥- عند عضد الدولة بشيراز ونكبته في نيسابور

توجه أبو بكر إلى عضد الدولة ومعه كتاب الصاحب بن عباد. ووجد كل الترحيب من عضد الدولة رئيس دولة بني بويه. واستفاد منه مالاً كثيراً. ولما انقلب عن شيراز بالغنيمة الباردة إلى نيسابور استوطنها واقتنى بها ضياعًا وعقاراً. ولما انصرف من شيراز إلى نيسابور لم يقدر على فراق عضد الدولة وعاود وحين عاد إلى شيراز وجد منها عللاً بعد نَهَلٍ[٥١] فأجري له عند انصرافه رسم يصل إليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يحمل من فارس إلى خراسان.[٥٢] وكان ذلك سببًا في أن يتعصب تعصبًا شديداً لبني بويه ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخارى، وناله من ذلك بعض السوء.[٥٣]

ومدح أبو بكر عضد الدولة وآل بويه واحترمه عضد الدولة حق قدره. ومن قوله في عضد الدولة:

أَضْحَتْ ثِيَابٌ فنا خسرو مُزَرَّرَةً ... عَلَى هِزَبرٍ وَإِنْسَانٍ صَمْصَامِ

الـقَائِلُ الْقَوْلَ عَيَّ السَامِعُونَ بِهِ ... فَمِيلُوا بَيْنَ أَوْهَامٍ وَأَفْهَامِ

وَالْفَاعِلُ الْفِعْلَةَ الْغَرَّاءَ لَامِعَةً ... أَوْضَاحُهَا بَيْنَ أَقْلَامٍ وَأَعْلَامِ

وَالتَّارِكُ التَّرْكَ وَالْخُذْلَانَ ينشدهُم ... (يَا بُؤْسَ لِلْجَهْلِ ضَرَاراً لِأَقْوَامِ).[٥٤]

٥١- «عَلَل بعد نَهَل»: أي الشرب المتوالي بعد الشربة الأولى، والمراد: الري بعد الاكتفاء بالقليل. (المنجد في اللغة والأعلام، ط. الثالثة والثلاثون، بيروت ١٩٩٢، ص ٥٣٢).

٥٢- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، القاهرة، ب.ت.، ط. السادسة، ص ٢٣١.

٥٣- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، القاهرة ١٩٩٦، ص ٥/ ٥٩٨.

٥٤- الثعالبي، المصدر السابق، ص ٤/٢٤٧.

المصراع الآخر للنابغة الذبياني[٥٥]

أحب أبو بكر آل بويه وانحاز إليهم انحيازاً ضد آل سامان أمراء خراسان. وهذا الانحياز لآل بويه كان سببًا في نكبة حلت بأبي بكر خسر فيها حريته وكثيراً من أمواله.[٥٦]

«وكان أبو بكر يتعصب لآل بويه تعصبًا شديداً، ويغض من سلطان خراسان ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه، إلى أن كانت أيام تاش الحاجب ورجع من خراسان إلى نيسابور منهزمًا، وشمت به وجعل يقول: قبحًا له وللوزير أبي الحسن العتبي، فأبلغ العتبي أبياتًا منسوبة إلى الخوارزمي في هجائه ولم يكن قالها، منها:

قُلْ لِلْوَزِيرِ أَزَالَ اللَّهُ دَوْلَتَهُ جزيت صرفًا عَلَى قَوْلِ ابْنِ مَنْصُور

فكتب إلى تاش في أخذه ومصادرته وقطع لسانه وإلى أبي المظفر الرعيني في معناه، وكان يلي البندرة بنيسابور إذ ذاك، فتولّى حبسه وتقييده وأخذ خطه بمائتي ألف درهم واستخرج بعض المال وأذن له في الرجوع إلى منزله مع الموكلين به ليحمل الباقي، فاحتال عليهم يومًا، وشغلهم بالطعام والشراب وهرب متنكراً إلى حضرة الصاحب بجرجان.»[٥٧]

٥٥- **النابغة الذبياني** (ت. نحو ٦٠٤ م.): أحد فحول الشعراء الثلاثة وهم أمرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة. ويمتاز عن صاحبيه ببديع كنايته وموافقة شعره لهوى النفوس. اتصل بملك الحيرة النعمان بن المنذر وأسبغ الملك نعمته عليه. فسعى بعض حساده بالنميمة بينهما ونجا بنفسه إلى الشام ولجأ إلى ملوك غسان ثم عاد إلى الحيرة معتذراً وهو مشهور بـ **«الاعتذاريات»**. (عثمان زكي صوي يكيت، **الأدب العربي**، أستانبول ١٩٩٣، ص ٥٧/١.)

٥٦- مصطفى...، **المصدر السابق**، ص ٢٦-٢٧.

٥٧- الثعالبي، **المصدر السابق**، ص ٢٣٨/٤.

٦- عودته إلى الصاحب بن عباد

هرب أبو بكر الخوارزمي إلى جرجان حيث الصاحب ابن عباد ولقيه الصاحب بمزيد الترحاب وأكرمه إكرامًا. وعاد أبو بكر إلى حياته السابقة في رحاب الصاحب بن عباد. كذلك تجلت عن أبي بكر غمة الخطب وانتعش في ذلك الفناء الرحب وعاود العادة المألوفة من المبار لأحبية.[٥٨] «ولكن أبا بكر كعادته مل صحبة الصاحب. أو - كما يقول - ضاق صدره بالمؤامرات التي كانت تحاك ضده في بلاط الصاحب. وأحس من الصاحب إغماضًا على تلك المؤامرات فقلا صديقه وبقي على مضض، ينتهز الفرصة المواتية ليستبدل بصاحبه رئيسًا جديداً. وواتته الفرصة حين قتل أبو الحسن العتبي وزير السامانيين وقام مقامه أبو الحسن المزني. فاستدعى أبا بكر وأمنه وأكرمه.

وترك أبو بكر صديقه القديم الصاحب بن عباد إلى نيسابور وهجاه قائلا:

لَا تَمْدَحَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى شَابَهُ الدِّيَمَا

فَإِنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطِي وَيَمْنَعُ لَا بَخَلًا وَلَا كَرَمًا[٥٩]

ويذكر أبو حيان التوحيدي أن أبا بكر فارق الصاحب لأنه ضربه حتى رعف ويقول في ذلك:

٥٨- المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

٥٩- مصطفى ...، المصدر السابق، ص ٣٠-٣١.

«حضر الخوارزمي يومًا، وجرى حديث القافة، فقال الخوارزمي: دخل محرز المدلجي على رسول الله صلى الله عليه وسلّم ونظر إلى أقدام أسامة وزيد، فقال: هذه أقوام بعضها من بعض، وصحّف البائس كما يُصحف الناس، العلماء فمن دونهم، وكان ابنُ عباد على بركة، فمازال يَدور حول البركة وهو يصفع الخوارزمي ويقول: محرز؟ بحياتي؟ إلى أن رعف الخوارزمي فتنحى وخرج. فهذا وما داناه هو الذي كان يفسد به ما يفعله من الخير والبر.»[٦٠]

٧- علاقاته مع أبي الحسين المزني وأبي القاسم المزني

فلما قتل العتبي وزير السامانيين خلفه أبو الحسين المزني فاستقدم الخوارزمي إلى نيسابور فقد كان صديقًا ومحبًا له. ثم استرد إليه أمواله.[٦١] وردت له أمواله وردت عليه كرامته. وزادت حال أبي بكر وثبت قدمه ونظر إليه ولاة الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام والإكرام فارتفع مقداره وطاب عيشه.[٦٢] وعاش يدرس وينشئ الشعر ويرويه ويمضي أيامه بين مجالس الدرس حتى توفي أبو الحسن المزني وولى الوزارة أبو القاسم المزني فأحسن إلى أبي بكر كما فعل سلفه أبو الحسين المزني. وشكر الخوارزمي لأبي القاسم حسن صنيعه، ولكن حين قبض على أبي القاسم المزني حزن عليه الخوارزمي وكتب فيه:

٦٠- التوحيدي، المصدر السابق، ص ١٠٩-١١٠.

٦١- فروخ، عمر، المصدر السابق، ص ٥٤٥.

٦٢- الثعالبي، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

وَثَبَ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ وَقَدْ ... يُطْفِي التُّرَابُ حَرَارَةَ الْجَمْرِ

لَا تَعْجَبَنَّ فَرُبَّ سَاقِيَةٍ ... قَدْ كَدَرَتْ طَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ

هَذَا الْحُسَامُ يَفُلُّهُ حَجَرٌ ... وَبِهِ قِوَامُ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ

غَصَبَتْ جَذِيمَةُ نَفْسِهِ امْرَأَةٌ ... فَاصْطِيدَ ذَاكَ الْحُرُّ بِالْحُرِّ

هَيْهَاتَ هَذَا الدَّهْرُ أَلْأَمُ مِنْ ... أَنْ لَا يَسُرَّ الْعَبْدَ بِالْحُرِّ[٦٣]

«واستقر أبو بكر في نيسابور رفيع المكانة ميسور الحال، يدرس ويحاضر ويرسل أشعاره في أغراض شتى، ويكتب الرسائل إلى الرؤساء والزعماء والأصدقاء وإلى تلاميذه الذين يطلبون علمه ويخطبون وده إلى أن ابتلى في أواخر عمره ببديع الزمان الهمذاني وجرت بينهما مناظرة شهيرة فكسف بال أبي بكر ولم يحل عليه الحول حتى لقي ربّه.»[٦٤]

٨- مذهبه وعقيدته

كان أبو بكر الخوارزمي مؤمنًا بالله، ويظهر التأثر بالروح الدينية في كتاباته. ويقتبس من القرآن ومن الحديث في رسائله. ويكثر في رسائله من حمد الله والصلاة على رسوله. إن أبا بكر عرف مختلف المذاهب العقائدية. فقد كان رجلاً مثقفًا واسع الاطلاع ولكنه حصر نفسه في نطاق التشيع وحشر نفسه في زمرة الشيعة. وكان يظهر تشيعه في كل مناسبة.[٦٥] «وبحكم تشيعه

٦٣- المصدر نفسه، ص ٢٧١.

٦٤- مصطفى ...، المصدر السابق، ص ٣٣-٣٤.

٦٥- المصدر نسه، ص ١٩٢.

كان غاضبًا على الخلفاء العباسيين السنيين، غير أنه اكتفى في هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ في توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق، يقول:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابًا

قل الدراهم في كفَّيْ خليفتنا هذا فأنفق في الأقوام ألقابًا

وكان الخوارزمي يغيظ الشيعي المتعصب لمذهبه أن يرى أحيانًا فقيهًا يلقن ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم الشيعة ناصبية، فيدعى عليه أنه كان يهتف:

مُجبرُ صيِّر ابنه ناصبيًا مُجْبراً مثله وتلك عجيبَه

والمجبر الذي يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له في فعله ولا اختيار وأنه مسير كريشة في يد القدر يوجهه كيف شاء. وأسخطه طاهر ابن شار الطبرستاني، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله:

لِلَّهِ فِي كُلِّ مَا قَضَاهُ لَطَائِف تَحْتَهَا بَدَائِعُ

سُبْحَانَ مَنْ يُطْعِمُ ابْنَ شَارٍ وَيَتْرُكُ الْكَلْبَ وَهْوَ جَائِعُ»[٦٦]

وكتب أبو بكر رسالة إلى جماعة الشيعة بنيسابور لما قصدهم محمد ابن إبراهيم واليًا عليها.[٦٧] هذه الرسالة سبة في جبين أبي بكر. إذ سلك فيها مسلك المتطرفين من الشيعة. تقع هذه الرسالة في عشر صفحات. بدأها أبو بكر بالدعاء للشيعة وذم السلطان، يقول فيها:

٦٦- شوقي ضيف، المصدر السابق، ص ٥٩٩.

٦٧- رسائل ....، ص ١٣٠ -١٤٠.

«سمعت أرشد الله سعيكم وجمع على التقوى أمركم، ما تكلم به السلطان الذي لا يتحامل إلا على العدل. ولا يميل إلا على جانب الفضل. ولا يبالي بأن يمزق دينه إذا رفا دنياه. ولا يفكر في أن لا يقدم رضا الله إذا وجد رضاه، وأنتم ونحن أصلحنا الله وإياكم عصابة لم يرض الله لنا الدنيا فذخرنا للدار الأخرى ورغب بنا عن ثواب العاجل...»[٦٨]

ثم يتطاول الخوارزمي على الصحابة وعلى سبيل المثال يتهم أبا بكر بأنه اغتصب ميراث فاطمة بنت الرسول وآخّر أمير المؤمنين علي عن الخلافة. ثم يذكر الأحداث التي حلت بالشيعة منذ عهد علي بن أبي طالب. وحتى أنه يتطاول إلى تفسير القرآن فيدعي أن الشجرة الملعونة في القرآن[٦٩] إنما ترمز إلى بني أميّة.

وكان الشيعة ينادون بأن عليًا هو المستحق الوحيد للخلافة وعلى ذلك يكون أبو بكر وعمر وعثمان مغتصبين للخلافة. وهاجم أبو بكر الخوارزمي كل من خالف رأي الشيعة في الإمامة. ففي نهاية رسالته التي كتبها إلى جماعة الشيعة يلجأ إلى الله داعيًا إياه أن يعيذه ويعيذ الشيعة من ضلالات المذاهب فيقول: «وأن يعيذنا من رعونة الحشوية ومن لجاج الحرورية، وشك الواقفية وأرجاء الحنفية وتخالف أقوال الشافعية ومكابرة البكرية ونصب المالكية وأجبار الجهمية والبخارية وكسل الراوندية وروايات الكيسانية وجحد العثمانية وتشبه الحنبلية وكذب الغلاة الخطابية...»[٧٠]

٦٨- المصدر نفسه، ص ١٣٠.

٦٩- سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

٧٠- مصطفى ...، المصدر السابق، ص ١٩٢-١٩٥؛ رسائل ...، ص ١٣٩.

٩- أخلاقه

كان أبو بكر رجلاً ذا شخصيّة قوية قد تمكن من أن يفرض نفسه على عصره. احترمه الجميع، واقترب منه كبار رجال الدولة. إلا أن أبا بكر كما يبدو من تطور الأحداث لم يكن إنسانًا وفيًا وكانت عواطفه تتقلب ولا يستقر على حال. وقد ذكرنا كيف هجر سيف الدولة وهجا أبا علي البلعمي وهجر الصاحب بن عباد و كان أبو بكر عنيف الخصومة وسليط اللسان. ويؤاخذ أصدقاءه على كل زلّة ويهجر لأدنى سبب. وقد كتب إليه أبو البركات علي بن الحسين هذه الأبيات:

لَئِنْ كَانَ ذَنْبِي أَنِّي اعْتَلَلْتُ ... فَذَلِكَ ذَنْبٌ صَغِيرٌ صَغِيرٌ

وَإِنْ كَانَ هَجْرِي مِنْ أَجْلِهِ ... فَذَلِكَ ظُلْمٌ كَبِيرٌ كَبِير

صُدُودُكَ عَنِّي صُدُودُ الْحَيَاةِ ... وَصَدُّ سِوَاكَ يَسِيرٌ يَسِير

فَزُرْنِي قَلِيلاً تَجِدْ شَاكِراً ... لَدَيْهِ الْقَلِيلُ كَثِيرٌ كَثِير

ويبدو من هذه الأبيات أن أبا بكر الخوارزمي هجره من أجل تأخر أبي البركات عن زيارة أبي بكر لعلة أوجعته.[٧١] ويقول أبو بكر في رسالة كتبها إلى أبي الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل: «ومن أنقذ إنسانًا من الفقر وانتشله من مخالب الدهر وفكه من أسار العصر. فقد اعتقه من الرق الأكبر ونجاه من الموت الأحمر.»[٧٢]

٧١- مصطفى ....، المصدر السابق، ص ٤٤-٤٥.

٧٢- رسائل ....، ص ١٠٦.

ويبدو من هذه الرسالة أن أبا بكر ذاق مرارة الفقر في حياته وربما كان سبب شحه بالمال من أجل ذلك الفقر. كان أبو بكر كثير الفخر بنفسه ويتخذرسائله ليمدح نفسه. وكان يجد نفسه أرفع الناس.[٧٣] وبرغم ثقة الناس به كان لا يثق بأحد. وكان يعيب بهم على معاملتهم ونتمكن من رؤية ذلك في رسائله. ويؤمن أبو بكر بحرية الرأي وحرية الكاتب والشاعر في التعبير عن مشاعرهما وآرائهما. فيقول:

«وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان وأسلف الشكر قبل الإحسان.»[٧٤] ويقول في امتهان الأدب: «وأغار على الأدب الكريم من المتأدب اللئيم.

وأرثي له موفق السوء عنده كمرثيتي للطرف والعلج راكبه

ولوددت لو أن يكون الأدب في جبهة الأسد. ولو أصبحت الدفاتر في أنياب الأساود ووددت لو أن كتب ورقة بدينار أو كتب دفتر بقنطار...»[٧٥]

٧٣- H. Ritter, "Harizmi", Abû Bakr", MEB, İslam Ansiklopedisi,. ١٩٨٨، ج ١/٥، ص ٢٦٣

٧٤- مصطفى ...، المصدر السابق، ص ٥١.

٧٥- رسائل ...، ص ١٠٥.

ب - المناظرة بين الخوارزمي والهمذاني ووفاة الخوارزمي

كانالهمداني[٧٦] قد ورد نيسابور سنة ٣٨٢ هـ. وأبو بكر الخوارزمي كان متربعًا في نيسابور على عرش الأدب وقد شاعت شهرته في الآفاق.[٧٧] وكتب بديع الزمان إلى الخوارزمي رسالة يشكو فيها سوء حاله إليه ويستعين به.[٧٨] يقول فيها الهمذاني: «أنا لقرب الأستاذ، كما طرب النشوان مالت به الخمر، ومن الارتياح للقائه. كما انتفض العصفور بلله القطر، ومن الامتزاج بولائه، كما التفت الصحباء، والبارد العذب، ومن الابتهاج بمزاره، كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب...»[٧٩]

لم يهتم أبو بكر الخوارزمي برسالة الهمذاني وعلى ذلك زار الهمذاني أبا بكر في بيته وغضب بديع الزمان على أبي بكر لإساءة لقائه وعدم اهتمامه به وكتب إليه رسالة يهجوه.[٨٠]

وأجاب الخوارزمي برسالة أكّد فيها أنه وفاه حقه كلامًا وسلامًا وقيامًا. ولكنّه في نفس

٧٦- **بديع الزمان الهمذاني**: هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الكاتب المترسل والشاعر. ولد بهمذان ونشأ بها ودرس العربية والأدب، ثم أقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقامة. ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي. فلما مات الخوارزمي خلا له الجو عند الملوك والأمراء. ثم استوطن هراة فحسنت حاله ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ هـ.
(الإسكندري، أحمد، وعناني مصطفى، **الوسيط في الأدب العربي وتاريخه**، القاهرة، ١٩٣١، ط. التاسعة، ص ٢١٤-٢١٥). راجع لمعلومات مفصلة للهمذاني: Er, Rahmi, **Bedîu'z-Zaman el-Hemezânî ve Makameleri**, إستانبول ١٩٩٤.

٧٧- مصطفى ...، **المصدر السابق**، ص ١٩٦.

٧٨- المصدر السابق، ص ١٩ Rahmi Er,

٧٩- الحموي، ياقوت، **معجم الأدباء**، بيروت، ١٩٣٦، ص ١-٢/ ١٦٧-١٦٨.

٨٠- المصدر السابق، ص ٢٠ Rahmi Er,

الوقت أنذره بأن هذه المعاملة القاسية تصرفه عنه، حيث يقول:[٨١]

إِنَّكَ إِنْ كَلَّفْتَنِي مَا لَمْ أُطِقْ سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقْ

فهمت ما تناوله سيدي من حسن خطابه، ومؤلم عتبه وعتابه، وصرفت ذلك منه إلى الصخر الذي لا يخلو منه من نبا به دهر... أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه رغم القيام، وتكلفي لرد السلام، فقد وفيته حقه، كلامًا، وسلامًا، وقيامًا على قدر ما قدرت عليه...»[٨٢]

وكتب الهمذاني إلى الخوارزمي رسالته الثالثة يظهر فيها الود ولكنه يحفر حفرة للصدام والنزاع ويطلب من الخوارزمي أن يزور كما يزار ويتهم أبا بكر بالتعالي.[٨٣] وكتب أبو بكر رداً على هذه الرسالة يقول فيها:

«... فأما الإنصاف في الإخاء فهو ضالتي عند الأصدقاء ولا أقول:

وإني لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان، والإخوان إخوان، وحسن العشرة سلطان، ولكني أقول: وإني لمشتاق إلى ظل

٨١- مصطفى...، المصدر السابق، ص ١٩٧.

٨٢- الحموي، ياقوت، المصدر السابق، ص ١٨٨.

٨٣- مصطفى ...، المصدر السابق، ص ١٩٨.

رَجُلٍ يُوَازِنُكَ الْمَوَدَّةَ جَاهِداً يُعْطِي وَيَأْخُذُ مِنْكَ بِالْمِيزَانِ

فَإِذَا رَأَى رُجْحَانَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مَالَتْ مَوَدَّتُهُ مَعَ الرُّجْحَانِ[٨٤]

«وتبودلت الرسائل بينهما وظلت الأمور تتطور حتى بلغ الصراع قمته. واتهم كل منهما الآخر بمعاداة الشيعة، ونحل كل منهما الآخر أشعاراً في ذلك سعيًا إلى اجتذاب الجماهير والزعماء إلى جانبه وأثارتهم ضد خصمه. ثم عقدت المناظرة بينهما.»[٨٥]

قد أثرت أسباب متعددة في عقد مناظرة بين أبي بكر وبديع الزمان. كان أبو بكر يمثل قمة الشهرة حين وفد الهمذاني على نيسابور فاستغل أهل نيسابور الفرصة وأعانوا الهمذاني على الخوارزمي. لأن أهل نيسابور كانوا مستوحشين من الخوارزمي جداً. وكان له خصوم في نيسابور يرغبون في إزالته عن عرش الأدب.[٨٦] وكان الهمذاني في مستقبل شبابه لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره بعد. وقد أوتي من سرعة البديهة وقوة الحافظة والقدرة على التصرف في فنون القول ما لم يؤته غيره. وكان الهمذاني يسعى إلى اسقاط الخوارزمي واحتلال القمة الأدبية بمفرده.[٨٧]

وجمع نقيب السيادة بنيسابور أبو علي بينهما وأراده على الزيارة، فبلغ أبو علي البلعمي مركوبه فحضر أبو بكر مع تلاميذه، فقال له الهمذاني: «إنما دعوناك لنملأ المجلس

٨٤- الحموي، ياقوت، المصدر السابق، ص ١٩٣.

٨٥- مصطفى ...، المصدر السابق، ص ١٩٩.

٨٦- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، القاهرة، ب.ت.، ص ٢٣١.

٨٧- مصطفى ...، المصدر السابق، ص ٢٠٠.

فوائد، وتذكر الأبيات الشوارد، والأمثال الفوارد، ونناجيك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتسر بما عندنا، ونبدأ بالفن الذي ملكت زمامه، وطار به صيتك، وهو الحفظ إن شئت، والنظم إن أردت، والنثر إن اخترت، والبديهة إن نشطت، فهذه دعواك، التي تملأ منها فاك.»

فتجنب الخوارزمي الحفظ لكبر سنه، واختار المبادهة، فقال الهمذاني: «الأمر أمرك يا أستاذ.» فقال له الخوارزمي: «أقول لله ما قال موسى للسحرة» «فقال بل ألقوا» فقال البديع:

الشِّعْرُ أَصْعَبُ مَذْهَبًا وَمَصَاعِدًا ... مِنْ أَنْ يَكُونَ مُطِيعُهُ فِي فَكِّهِ

وَالنَّظْمُ بَحْرٌ وَالْخَوَاطِرُ مَعْبَرٌ ... فَانْظُرْ إِلَى بَحْرِ الْقَرِيضِ وَفُلْكِهِ

فَمَتَى تَرَانِي فِي الْقَرِيضِ مُقَصِّرًا ... عَرَّضْتُ أُذْنَ الِامْتِحَانِ لِعَرْكِهِ

فقال الخوارزمي أيضًا أبياتًا. فقال لهما الشريف: «انسجا على منوال المتنبي:

أرق على أرق ومثلي يأرق

فابتدأ الخوارزمي قائلاً:

فَإِذَا ابْتَدَهْتَ بَدِيهَةً يَا سَيِّدِي ... فَأَرَاكَ عِنْدَ بَدِيهَتِي تَتَقَلَّقُ[88]

ويبدأ الهمذاني جولة من النقد الأدبي فيقول:

«لكن رفقت بين قافات خشنة، كل قاف كجبل قاف..» ويبدو أن الهمذاني يهتم بانسجام القافية ومتابعة الألفاظ وخفة وقعها. ويعيب على الخوارزمي ثقل ألفاظه وينقد كل منهما الآخر

88- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ١٧٤-١٧٩.

حتى أمال النعاس رؤوس القوم فنام الحاضرون وأصبحوا فتفرقوا والقوم بعضهم حكم بغلبة الهمذاني وبعضهم حكم بغلبة الخوارزمي. وأراد الفضلاء أن يسعوا بينهما بالصلح، ودخل الهمذاني على الخوارزمي واعتذر منه وقال له:

«بعد الكدر صفو، وبعد الغيم صحو.»

فأراد الخوارزمي أن يقيم الهمذاني عنده سحابة يومه فأجابه الهمذاني وأضافه الخوارزمي وكان بعض الرؤساء مستوحشًا من الخوارزمي ولذلك هيَّأوا مجمعًا في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير وأحضر أبو الطيب أدباء نيسابور في بيته.[٨٩] وسأل الهمذاني أبا بكر في أي علم يشاء أن يتناظر وتوجها إلى المبادهة مرة أخرى. وبعد المبادهة توجه المتناظران إلى التراسل وقال الهمذاني: «اقترح على غاية ما في طوقك ونهاية ما في وسعك، واختر ما تبلغ بذرعك. حتى أقترح عليك أربعمئة صنف في التراسل... ومثال ذلك أن أقول لك: اكتب كتابًا يقرأ منه جوابه. هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك: اكتب كتابًا على المعنى الذي أقترح لك، وانظم شعراً في المعنى الذي أقترح، وافرغ منها فراغًا واحداً. هل كنت تمد له ساعداً؟ أو أقول لك: اكتب كتابًا في المعنى الذي أقول، وانشد من القصائد ما أريد من غير تثاقل ولا تغافل. حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره إلى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله. هل كنت تفوق لهذا الغرض سهمًا أو تجيل قدحًا أو تصيب نجحًا» ويستمر الهمذاني في عرض أفانين من ترسله لا يجيدها إلا هو. ويردّه الخوارزمي: هذه الأبواب شعبذة، ويكتب بديع الزمان كتابًا يقرأ من آخره

٨٩- المصدر نفسه، ص ١٧٦-١٧٩.

إلى أوله.

ثم ينتقلان إلى المناظرة في اللغة ويقول الهمذاني فيما رواه عن المناظرة: «وقاموا من المجلس يفدونني بالأمهات والأب ويشيعونه باللعن والسب».[٩٠]

وفي نهاية المناظرة صدق الحاضرون البديع وأنكروا على الخوارزمي. فقال الإمام أبو الطيّب أي الرجلين أفضل وأشعر. فقام الهمذاني وقبل رأس الخوارزمي ويده وقال على سبيل الاستهزاء: «اشهدوا أن الغلبة له.» وتفرّق القوم واشتغلوا بتناول الطعام. والخوارزمي ينطق عن كبد حرى وقال الوزير للهمذاني: «ملكت فأسجح.» وما خرج الخوارزمي حتى غابت الشمس وعاد إلى بيته وانخذل انخذالا شديداً وكسف باله وانخفض طرفه.[٩١]

وإذا ألقينا نظرة على المناظرة يمكننا أن نرى أن شباب الهمذاني قد ساعده. ودعم أهل نيسابور الهمذاني على أبي بكر لما لاقوه منه من تعال وسلاطة لسان.

والمناظرة تبدأ باسم الله والصلاة وتلتزم السجع حتى أن الهمذاني عاب على أبي بكر نطقه بجملتين غير مسجوعتين، كما كانا يحرصان على توازن الجمل في النغم والموسيقى، ويحتوي أسلوبا الأديبين على الصور المناسبة وكانا يلجآن إلى الاقتباس من القرآن والحديث ويضمنان كلامهما أبياتًا من الشعر الجاهلي والإسلامي ونرى فيه ألفاظًا غريبة. وتعكس

٩٠- مصطفى ...، المصدر السابق، ص ٢٠٢-٢٠٣. (نقلاً عن رسائل بديع الزمان، ص ٣٤-٤٠.
٩١- الحموي، ياقوت، المصدر السابق، ص ١٨٢-١٨٣.

المناظرة صورة للثقافات المختلفة منها الثقافات الدينيّة والأدبية وعلم اللغة والنحو والعروض والنقد الأدبي والمنطق. ويدور معظم المناظرة حول النقد اللغوي والقواعد النحوية والعروضية.[٩٢]

بعد المناظرة انكسف بال أبي بكر الخوارزمي ومرض مرضًا شديداً. وشمت به بعض خصومه فكتب بعضهم إلى الهمذاني يهنئه بمرض أبي بكر. ولكن الهمذاني كان أكرم من أن يشمت بأحد لمرضه. فكتب إلى الخوارزمي رسالة يبدي بها حزنه لمرضه ويدعو له بالشفاء.[٩٣]

ولم يحل على الخوارزمي الحول حتى خانه عمره ونفذ قضاء الله ومات في نيسابور في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة.[٩٤] ويقول ابن الأثير مات الخوارزمي سنة ثلاث وتسعين.[٩٥]

وقد رثاه الهمذاني بأبيات يظهر فيها حزنه. ويقول:

حَنَانِيكَ مِنْ نَفْسٍ خَافِتٍ ... وَلَبَّيْكَ عَنْ كَمد ثَابِتِ

أبا بكر اسْمَعْ وَقُلْ كَيْفَ ذَا ... وَلَسْتَ بِمَسْمَعَةِ الصَّامِتِ

تَحَمَّلْتُ فِيكَ مِنَ الْحُزْنِ مَا ... تَحَمَّلَهُ ابنك مِنْ صَامِتِ

حَلَفْتُ لَقَدْ مِتُّ مِنْ مَعْشَرٍ ... غَنِيِّينَ عَنْ خَطَرِ الْمَائِتِ

يَقُولُونَ أَنْتَ بِهِ شَامِتٌ ... فَقُلْتُ الثَّرَى بِفَمِ الشَّامِتِ

٩٢- مصطفي ...، المصدر السابق، ص ٢٠٤-٢٠٥.

٩٣- المصدر السابق، ص ٢١ Er, Rahmi,

٩٤- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حقّقه محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٢٤/٣.

٩٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٠١/٩.

وَعَـزَّتْ عَـلَـيَّ مَـعَـادَاتُـه وَلَا مُـتَـدَارَكٌ لِلْـفَـائِـتِ[٩٦]

أما الصاحب بن عباد فقد شمت بالخوارزمي عندما بلغ خبر موته وأنشد:

أَقُـولُ لِـرَكْـبٍ مِـنْ خَـوَارِزْمَ قافلٍ أَمَاتَ خوارزميّكم؟ قيل لي نَعَمْ

فَقُلْتُ اكْتُبُوا بِالجصِ مِنْ فَوْقِ قَبْرِهِ أَلَا لَـعَـنَ الرَّحْمَنُ مَنْ كَفَرَ النِعَمْ[٩٧]

٩٦- الثعالبي، المصدر السابق، ص ٢٣٩.

٩٧- ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حقّقه محمود الأرناؤوط، بيروت، ١٩٨٩، ص ٤٣٥/٤.

ج- الخوارزمي الشاعر

إن الخوارزمي لم يكن ناثراً فقط بل كان شاعراً كثير الحفظ للأشعار ومع ذلك لم يكن شاعراً مبدعًا. أما شعر الخوارزمي فهو قليل وأقرب إلى شعر الكتاب منه إلى شعر الشعراء المطبوعين: إنه حسن المعاني قوي السبك صافي الأسلوب لكن طلاوة شعره قليلة.[٩٨]

طرق الخوارزمي كثيراً من أبواب الشعر، تحدث في مختلف جوانب الحياة وعبر عن مختلف الأحاسيس والآراء. وقد جمع **الثعالبي** أشعاره في **يتيمة الدهر**، ومن فنون أشعاره، المدح والهجاء والغزل، والرثاء، وفنون مختلفة.

وهذه غرر من مدحه وما يتصل بها:

من قصيدة في مؤيد الدولة ذكر فيها افتتاحه قلعة من أبكار القلاع واستزالته صاحبها المسمّى كوشيار منها:

وَكُنْتَ سَمَاءً وَالْعَجَاجُ سَحَائِبٌ ... وَخَيْلُكَ أَبْرَاجًا وَجَيْشُكَ أَنْجُمَا

وَأَنْزَلْتَ مِنْهَا كوشيار وَإِنَّمَا ... تَقَنَّصْتَ مِنْ فَوْقِ الْمَجَرَّةِ ضَيْغَمَا

عَرَفْتُكَ صَيَّادَ الْأُسُودِ وَلَمْ أَكُنْ ... عَرَفْتُكَ صَيَّادَ الْأُسُودِ مِنَ السَّمَا

خَدَمْتُكُمْ يَا آلَ بُوَيْهٍ مُدَّةً ... غَدَا بَيْنَهَا فَرْخُ الْوَسَائِلِ قَشْعَمَا

٩٨- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي، بيروت، ١٩٩٢، ط. السادسة، ص ٥٤٥/٢.

ومن أخرى في أبي الحسين المزني:

كَلِمٌ هِيَ الْأَمْثَالُ إلاَّ أَنَّهَا فِي النَّاسِ قَدْ أَضْحَتْ بِلَا أَمْثَالِ

فَإِذَا لَقِينَ فَإِنَّهُنَّ عَوَالِي وَإِذَا شَمَمْنَ فَإِنَّهُمْ غَوَالِي

ومن ميكاليّة:

فَدَيْتُكَ مَا بَدَا لِي قَصْدَ حُرٍّ سِوَاكَ مِنَ الْوَرَى إلاَّ بَدَا لِي

وَإِنَّكَ مِنْهُمْ وَكَذَلِكَ أَيْضًا مِنَ الْمَاءِ الْفَرَائِدِ وَالآلِي

وَتَسْكُنُ دَرَاهِمٌ وَكَذَلِكَ سَكِنى الحِجَارَةَ وَالزُّمُرُّدِ فِي الْجِبَالِ.[99]

وهذه من شعره في النسيب والغزل:

قد أبدع في وصف ما يتزايد من حسن الحبيب على الأيام التي من شأنها تغيير الصور وتقبيح المحاسن:

وَشَمْسٍ مَا بَدَتْ إلاَّ أَرِتْنَا بِأَنَّ الشَّمْسَ مَطْلَعًا فُضُولُ

تَزِيدُ عَلَى السِّنِينَ ضِيَاءً حُسْنًا كَمَا رَقَّتْ عَلَى الْعِتْقِ الشَّمُولُ

ومن أخرى:

مَضَتِ الشَّبِيبَةُ وَالْحَبِيبَةُ فَالْتَقَى دَمْعَانِ فِي الْأَجْفَانِ يَزْدَحِمَانِ

مَا أَنْصَفَتْنِي الْحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِي بِمُوَدِّعِينَ وَلَيْسَ لِي قَلْبَانِ

٩٩- الثعالبي، المصدر السابق، ص ٢٥٧-٢٥٨.

ومن أخرى:

قُـلْتُ لِلْـعَـيْنِ حِينَ شامت جَمَالاً فِي وُجُوهٍ كَوَاذِبِ الإِيمَاضِ

لَا تَغُرَّنَّكَ هَذِهِ الْأَوْجُهُ الغُرُّ فَيَا رُبَّ حَيَّةٍ مِنْ رِيَاضِ [100]

«وهذه لمع من تضميناته التي كانت رشيقة، وطريقة أنيقة، يضعها في مواضعها، ويوقعها أحسن مواقعها، و يفصح بها عن اتساع روايته وكثرة محفوظاته، فمنها قوله من قصيدة في عضد الدولة» [101] (من الوافر):

وَلَـمَّا أَكْثَرَ الْحُسَّادُ فِيهِ وَقَالُوا قَدْ تَغَضَّنَتِ الْخُدُودُ

أَجَابَ الْفَضْلُ عَنْهُ حَاسِدِيهِ (لِأَمْرِ مَا يسود من يسود)

«لأمرما» البيت لبلعام بن قيس الكناني

يُؤَدِّي لَوْ رَأَى كَنَفَيْهِ يَوْمًا وَمَنْ قَدْ عَاشَ تَحْتَهَا لَبِيدُ

لأن لبيداً يقول: (من الكامل):

«ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْفَانِهِمْ.» [102]

١٠٠- المصدر نفسه، ص ٢٣٩-٢٤٠.

١٠١- المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

١٠٢- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وهذه من أهاجيه في خلفاء العصر:

قال:

مَالِي رَأَيْتُ بَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ فَتَحُوا ... مِنَ الْكُنَى وَمِنَ الْأَلْقَابِ أَبوَابَا

وَلَقَّبُوا رِجَالاً لَوْ عَاشَ أَوَّلُهُمْ ... مَا كَانَ يَرْضَى بِهِ لِلْحَشِّ بَوَّابَا

قَلَّ الدَّرَاهِمُ فِي كَفَّيْ خَلِيفَتِنَا ... هَذَا فَأَنْفَقَ فِي الْأَقْوَامِ أَلْقَابَا

وله في علوي ناصبي:

شَرِيفٌ فِعْلُهُ فِعْلٌ وَضِيعٌ ... دَنِيءُ النَّفْسِ عِنْدَ ذَوِي الْجُدُودِ

عَوَّارٌ فِي شَرِيعَتِنَا وَفَتْحٌ ... عَلَيْنَا لِلنَّصَارَى وَالْيَهُودِ

كَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْهُ إِلاَّ ... لِتَنْعَطِفَ الْقُلُوبُ عَلَى يَزِيدِ

وقال في فقيه:

مُجْبِرٌ صَيَّرَ ابْنَهُ نَاصِبِيّا ... مجبراً مِثْله وَتِلْكَ عَجِيبَة

لَيْسَ يرضى أَنْ يَدْخُلَ النَارَ فَرْدًا ... سَاعَةَ الْحَشْرِ أَوْ يَقُودُ حَبِيبه[١٠٣]

١٠٣- المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

وهذه من مراثيه:

قال من قصيدة رثى بها ركن الدولة أبا علي:

أَلَسْتَ تَرَى السَّيْفَ كَيْفَ انْثَلَمْ ... وَرُكْنَ الْخِلَافَةِ كَيْفَ انْهَدَمْ

طَوَى الْحَسَنَ بْنُ بُوَيْهِ الرَّدَى ... أَيَدْرِي الرَّدَى أَيَّ جَيْشٍ هَزَمْ

ومنها أيضًا:

طَوِيلُ الْقَنَاةِ قَصِيرُ الْعَدَاتِ ... ذَمِيمُ الْعَدَاةِ حَمِيدُ الشِّيَمْ

فَصِيحُ اللِّسَانِ بَدِيعُ الْبَنَانِ ... رَفِيعُ السِّنَانِ سَرِيعُ الْقَلَمْ

يَكِيلُ الرِّجَالَ بِأَقْدَارِهِمْ ... وَيَرْعَى الْبُيُوتَاتِ رَعْيَ الْحَرَمْ

جَوَادٌ عَلَيْهِمْ بِخَيْلٍ بِهِمْ ... إِذَا سَاءَ خَصَّ وَإِنْ سَرَّ عَمْ

فَيَا دَهْرُ سُحْقًا وَلَا تَحْتَشِمْ ... فَقَدْ ذَهَبَ الرَّجُلُ الْمُحْتَشَمْ

وَخَطَّ الْفَنَاءَ عَلَى قَبْرِهِ ... بِخَطِّ الْبَلَا وَبَنَانِ السَّقَمْ

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ دَنَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمْ[١٠٤]

١٠٤- المصدر نفسه، ص ٢٥٩.

وهذه فقر للخوارزمي في فنون مختلفة:

قال في باقة ريحان:

وَضْغْثِ رَيْحَان إذَا مَا وَصَفَهْ ... وَاصِفَه قِيلَ لَهُ زِدْ فِي الصِّفَه

دَقَّقَه صَانِعه وَلَطَّفَه ... كَأَنَّه وَشْمُ يَدٍ مطَرَّفَه

أَوْ حَظٌّ وَرَّاقٍ أَدقَّ أَحْرُفَهْ ... أَوْ زَغَبَات طَائِرٍ مُصَفَّفَهْ

ومن أرجوزته:

لَا تَشْكُرِ الدَّهْرَ لِخَيْرٍ سَبَّبَه ... فَإِنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ بِالْهِبَهْ

وَإِنَّمَا أخطأ فِيك مَذْهَبه ... كَالسَّيْلِ إِذْ يَسْقِي مَكَانًا خَرَّبَهْ

والم يَسْتَشْفِي بِهِ مِنْ شُرْبِهِ ... مَا أَثْقَلَ الدَّهْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهْ

حَدَّثَنِي عَنْهُ لِسَانُ التَجْرِبَهْ ... مَا أَهْوَنَ الشَّوْكَةَ قَبْلَ الرَّطْبَه[١٠٥]

وله في وصف الخمر من قصيدة:

وَصَفْرَاءَ كَالدِّينَارِ نَبْتُ ثَلَاثَةٍ ... شِمَالٍ وَأَنْهَارٍ وَدَهْرٍ مُحَرَّمِ

مَسَرَّةُ مَحْزُونٍ وَعُذْرُ مُعَرِّدٍ ... وَكِبْرِ مَجُوسِيٍّ وَفِتْنَةُ مُسْلِمِ

مَمَاتُ لِأَحْيَاءٍ حَيَاةُ لِمَيِّتٍ ... وَعُدْمٌ لِمَنْ أَثْرَى ثَرَاءٌ لِمُعْدِمِ

يَدُورُ بِهَا ظَبْيٌ تَدَوَّرُ عَيْنُونَنَا ... عَلَى عَيْنِهِ مِنْ شرط يَحْيَى بْن أَكْثَمِ

١٠٥- المصدر نفسه، ص ٢٧٤-٢٧٥.

يُنَزِّهُنَا مِنْ ثَغْرِهِ وَمُدَامِه وَخَدَيْهِ فِي شَمْسٍ وَبَدْرٍ وَأَنْجُمِ

نَهَضْنَ إِلَيْهَا وَالظَّلَامُ كَأَنَّهُ مَعَاشٌ فَقِيرٍ أَوْ فُؤَادُ مُعَلَّمِ[١٠٦]

د- مؤلفاته

١- رسائل أبي بكر الخوارزمي:

كتاب مجموعة رسائل وهو مئتان وأربع عشرة صفحة وفيها مئة وخمس وخمسون رسالة، وقد طبعت في القاهرة سنة ١٢٧٤، ١٢٧٩، ١٣١٢ وفي إستانبول سنة ١٢٧٩ وفي بومباي سنة ١٣٣١. وقد نشره نسيب وهيبة الخازن أخيراً في بيروت سنة ١٩٧٠.[١٠٧]

هذه الرسائل كلها من الرسائل الإخوانية كتبها الخوارزمي إلى أصدقائه وتلاميذه وإلى الوزراء والحكام.

٢- ديوان الخوارزمي:

لم يصل إلينا ديوان الخوارزمي لكن الثعالبي قد جمع في يتيمته أشعاره.

١٠٦- المصدر نفسه، ص ٢٧٣.

١٠٧- أرضروم ١٩٩٤، ص ١١ Demirayak, Kenan, Çöğenli, M. Sadi, Arap Edebiyatında Kaynaklar.

٣- مفيد العلوم ومبيد الهموم ورسالة المكارم والمفاخر:

وهي جزء من كتاب مفيد العلوم. قد نشرت هذه المؤلفة نسبة إلى الخوارزمي مراراً ولكن قد أثبت عبد القادر عطا أن هذه المولفة لزكريا بن محمد القزويني (ت. ١٢٨٣/٦٨٢) ونشرها نسبة إليه في بيروت سنة ١٩٨٥.[١٠٨]

٤- رسم المعمور من البلاد: لم يصل إلى يومنا.

٥- شرح ديوان المتنبي: لم يصل إلى يومنا.

٦- كتاب الجمهرة: لم يصل إلى يومنا.

١٠٨- إستانبول ١٩٩٧، ص ٢٢١/١٦-٢٢٢ Demirayak, Kenan, Harizmi, Ebû Bekr, TDV İslam Ansiklopedisi,

الفصل الثاني

رسائل أبي بكر الخوارزمي

الفصل الثاني

رسائل أبي بكر الخوارزمي

موضوعات الرسائل

تحتوي رسائل أبي بكر الخوارزمي على مختلف جوانب الحياة و تعبر عن مختلف الاراء والمشاعر. حيث نرى في الرسائل الشكوى والعتاب والتلويم والاستهزاء والشكر والاعتذار والمواساة والتهنئة والتعزية والشفاعة والنصح والحكم والنصائح والإرشاد والأجوبة على تلاميذه وأيضًا فيها تصور الحياة الأدبية والسياسية و الاجتماعية في تلك الفترة.

كتب أبو بكر رسائل في شؤون عامة منها إلى أصدقائه من الأدباء ومنهم أبو سعيد رجاء بن الوليد الإصفهاني يهنئه بشفائه[1] وكتب إلى فقيه في تعهد مسجد[2] وكتب إلى حاجب الوزير أبي القاسم ابن عباد حين ورد خراسان وحمل إليه نزلاً[3] وكتب رسالة طويلة إلى جماعة الشيعة بنيسابور لما قصدهم محمد بن إبراهيم واليها.[4]

وكتب الخوارزمي رسائل مختلفة ومنها ما كتبها إلى الحاجب أبي إسحق لما نكبه الوزير بن عباد[5] وكتب إلى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له[6] وكتب إلى أبي القاسم المزني بسلامته

١- رسائل ...، ص ١٥٧.
٢- المصدر نفسه، ص ١٦٢.
٣- المصدر نفسه، ص ١٦٧.
٤- المصدر نفسه، ص ١٣٠.
٥- المصدر نفسه، ص ٢.
٦- المصدر نفسه، ص ١٥.

بعد أن هدمت عليه داره[٧] وكتب إلى أبي بكر بن شيمرد يعتذر ويطلب العفو[٨] وكتب إلى أبي نصر الميكالي يشكره على اصطناعه فقيهًا من تلاميذه.[٩]

إن رسائل الخوارزمي كلها من الرسائل الإخوانيّة كتبها إلى أصدقاء وأعداء وتلاميذ. وحتى رسائله التي كتبها إلى الحكام تعتبر من الرسائل الإخوانية فهي تعبر عن آرائه وعلاقاته الشخصية. ومن المعروف أن أبا بكر لم يعمل في الدواوين باسم أحد من الرؤساء الذين اتصل بهم. إن أبا بكر قد كتب رسائله ناصحًا ومعلّمًا أو معبّرًا عن آرائه ومشاعره الشخصيّة.

وتبدو المهارة العقلية والأدبية في رسائل التهنئة بالنجاة أو بالشفاء. وكان الخوارزمي يبالغ في تعظيم أصدقائه، مثلاً كتب إلى أردهل وقد شفي من علته، فيتحدث الخوارزمي عن ألمه للعلة وسروره بالشفاء قائلاً:

«فكان سروري بالأخرى في وزان غمي بالأولى. لا غم الله في الشيخ أصدقاءه، وحرس من الحوادث حوباءه ومن الغير فناءه.»[١٠]

وتدل أكثريّة رسائله التعزية على مهارة عقلية. ولكن لا يقال إن هذه الرسائل تدل على انفعال صادق وتكشف عن مشاركة وجدانية حقة. مثلاً كتب رسالة إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وبنته، فيقول:

٧- المصدر نفسه، ص ٢١٠.
٨- المصدر نفسه، ص ١٥٢.
٩- المصدر نفسه، ص ١١٩.
١٠- المصدر نفسه، ص ٥٥.

«فإنها مصيبة خرجت من كمين الدهر قبل أن يستعد لها بعدد الصبر وجاءت مجئ البغية، ووثبت وثبة المسارقة، وغلبت الأيام على ذلك الحر أطرى ما كان غضناء وأتم ما كان حسنًا، وأبعد ما كان أملا، وأظهر ما كان جزلاً».[11]

وكتب أبو بكر رسائل إلى تلاميذه، على سبيل المثال كتب إلى تلميذ له قطع في مجلس وكابر[12]، وكتب إلى تلميذ ورد له كتاب ترتفع ألفاظه عن كتابه مثله وطلب نسخة شعره[13]، وكتب إلى تلميذ يلومه لانقطاعه عن زيارته،[14] وكتب إلى تلميذ وقد ظهر عليه الجدري.[15]

وكتب الخوارزمي رسائل يفخر فيها بأنه مسيطر على منطقه ومشاعره لا يمدح إلا من يستحق المدح، فيقول:

«محاسب لقلبي إذا مال، وللساني إذا قال. لا أمدح إلا ممدوحًا بكل لسان، ولا أرضى إلا مرتضى في كل مكان.»[16]

كتب رسالة هجو طويلة تقع في أربعة عشرة صفحة إلى أبي الحسن المعروف بالبديهي الشاعر.[17]

١١- المصدر نفسه، ص ١٨.
١٢- المصدر نفسه، ص ١٢.
١٣- المصدر نفسه، ص ٧٥.
١٤- المصدر نفسه، ص ١٥٥.
١٥- المصدر نفسه، ص ١٥٨.
١٦- المصدر نفسه، ص ٥٠.
١٧- المصدر نفسه، ص ١٩١.

ويبدو في رسائل أبي بكر إشارات فلسفية، ولم يكن أبو بكر فيلسوفًا بالمعنى المعروف بل كان يكره الفلسفة والفلاسفة. فهو ينقم على الفلسفة ويراها لونًا من الإلحاد. ولكن أبا بكر كان يفلسف في تفكيره وتحليله. كتب إلى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له ويعلن مشاركته لصديقه في عواطفه الأليمة. و يعلل العاطفة البشرية التي يتألم لآلام الناس. ويجيب عن سؤال: لماذ يخاف الإنسان من الموت؟ و يقول:

«كتابي عن سلامة، وما سلامة من يرى كل يوم ركنًا من المنية مورودًا، ويعلم أن أيامه مكتوبة وأنفاسه محسوبة، وأن شباك المنية له منصوبة، فعلمت أنه شرب كأسًا أنا شارب من شرابها، ورمي بقوس سوف أرمى بها. فبكيت عليه بكاء لي نصفه، وحزنت له حزنًا لنفسي شطره.»[١٨]

وهكذا يكشف الخوارزمي عن أسرار العواطف و يبين أن الإنسان يحزن لخبر الموت لأنه يحس أنه سيموت نفسه.

كان في رسائل الخوارزمي حكم ونصائح كتب بها إلى أصدقائه وتلاميذه. فوردت حكمه ونصائحه حاوية كل مجال. وكان الخوارزمي يرى تلك النصائح واجبًا عليه وحقًا لغيره. وبعض الحكم تتعلق بالعواطف البشرية وتحليلها.

١٨- المصدر نفسه، ص ١٥.

وقد جمع الثعالبي كلمات له تجري مجرى الأمثال أخرجها من رسائله:

«الشكر على قدر الإحسان، والسلع بإزاء الأثمان. الإذكار حيث التناسي، والتقاضي حيث التغاضي. النفس مائلة إلى أشكالها، والطير واقعة على أمثالها. الأيام مرآة للرجال، والأطوار معيار النقص فيهم والكمال. العشرة مجاملة لا معاملة، والمجاملة لا تسع الاستقصاء والكشف، ولا تحتمل الحساب والصرف. الكريم يعزم من حيث يهون، والرمح يشتد بأسه حين يلين، الاعتذار في غير موضعه ذنب، والتكلف مع وقوع الثقة عتب. الدواء لغير حاجة إليه داء، كما أنه عند الحاجة إليه شفاء، الاستقالة تأتي على العثرات، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. الذنب للعين العشواء، في محبة الظلماء وكراهية الضياء. فم المريض يستثقل وقع الغذاء، ويستمرئ طعم الماء، الكريم إذا أساء فعن خطيئة، وإذا أحسن فعن عمد ونية. الحر إذا جرح أساء وإذا خرق رفا. وإذا ضر من جانب نفع من جوانب. الحر كريم الظفر إذا نال أنال، واللئيم سيئ الظفر إذا نال استنال. الآباء أبوان أبو ولادة وأبو إفادة، فالأول سبب الحياة الجسمانية، والثاني سبب الحياة الروحانية. الغير على الكتب من المكارم، بل هي أخت الغيرة على المحارم، والبخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه. ومعرفة بفضله، الرجل إذا قيّده عقال الوجل لم ينطلق نحو مطية الأمل. المحجوج بكل شيئ ينطق، والغريق بكل حبل يعلق، العاقل يختار خير الشرّين، ويميل مع أعدل الثقتين، الجواد محتكر بُرْ، لا محتكر بِرْ.[١٩] والكريم تاجر جمال، لا تاجر مال. والحرّ وقاية الحر من فقره، وسلاحه على دهره. العفو إلى المقر، أسرع منه

١٩- البر: الحبُّ، والبِرُّ: المعروف.

ألى المصر. الفرس الجواد يجري على عتقه، والفرع ينزع إلى عرقه. وكيف يخالف الإنسان مقتضى نسبته، ويطيب الثمر مع خبث تربته. المسافة صغيرة البقعة، صغيرة الرقعة، إذا ذرعت بذرع الهوى، ومسحت بيد الذكرى، فهي بعيدة إذا ذرعت بذرع التسلّي، ونظر إليها بعين التغافل والتناسي. الغضب ينسي الحرمات، ويدفن الحسنات، ويخلق للبريئ جنايات، المدح الكاذب ذم، والبناء على غير أساس هدم، الدهر غريم ربّما يفي بما يعد، والزمان حبلى ربما يتئم فيما يلد، الدهر أصم عن الكلام، صبور على وقع سهام الملام، يختصر العيدان ويهتصر الأغصان[20]، ويخترم الشبان[21]، ويبلى الآمال والأبدان، ويلحق بمن يكون بمن كان، الإنسان بالإحسان، والإحسان بالسلطان، والسلطان بالزمان، والزمان بالإمكان، والإمكان على قدر المكان، الدنيا عروس كثيرة الخطاب، والملك سلعة كثيرة الطلاب، الحق حق وإن جهله الورى، والنهار نهار وإن لم يره الأعمى، العذل طلاق الرجال، والمنحة صيقيل الأحوال. الشجاع محبب حتى إلى من يحاربه، كما أن الجبان مبغض إلى من يناسبه، وكذلك الجواد خفيف حتى على قلب غريمه، والبخيل ثقيل حتى على قلب وارثه وحميمه. الدهر يمطل وربّما عجل، وما شاء الإقبال فعل. الكريم من أكرم الأحرار. والعظيم من صغر الدينار. المصيبة في الولد العاق موهبة، والتعزية عنه تهنئة. المحبة ثمن كل شئ وإن غلا. وسلم لكل شئ وإن علا، الدهر يفي بعد غدر، ويجبر عقب كسر، ويتوب بعد ذنب، ويعقب بعد عتب. التقدم للغاية تأخر عنها، والزيادة على الكفاية نقصان منها. النسيب أخو النسيب، والأديب صنو الأديب، الشرف بين

٢٠- يهتصر: يقطع ويكسر.

٢١- ويخترم الشبان: يقضي على زعمارهم.

الأشراف نسب ولحمة، وذمام وحرمة، فالكريم شقيق الكريم، والعظيم أخو العظيم، وإن افتقر بلداهما واختلف مولداهما، إن السيوف على مقادير الأعضاء تفري، وإن الخيل على حسب فرسانها تجري. إنما السؤدد بكثرة الأتباع وكثرة الأتباع بكثرة الاصطناع، وإنما تحوم الآمال حيث الرغبة، ويسقط الطير حيث تنثر الحبة. إنما النساء لحم على وضم[٢٢]، وصيد في غير حرم. إلا أن يلاحظن بعين غيور، ونفس يقظ حذور، إن الولاية عزل إن لم يعمر جوانبها عدل. إنما يتعلل بالمعازف شوقًا إلى الإخوان، ويؤكل لحم الثيران شهوة للحوم الضأن، ويتجوز في الزبيبي على اسم العنبي ويستخدم الصقلبي عند غيبة التركي، شراء الكاسد حسبه، وحل المنعقد صدقه، وهداية المتحيّر عباده، معاتبة البرئ السليم، كمعالجة الصحيح غير السقيم، الفرس الجواد إذا ضرب كبا، والسيف الحسام إذا استكره نبا».[٢٣]

وكتب الخوارزمي رسائل يعاتب فيها أصدقائه لإهمالهم ولمقاطعتهم عن كتبه. مثلاً كتب إلى أبي الحسن علي أبي دايه وقد انقطعت عنه كتب رسالة يعاتبه فيها ويؤنبه.[٢٤]

ضرب الخوارزمي بسهم في كل ميدان وتحدث في قضايا عصره. وفي رسائله إشارات تاريخية.[٢٥] والشكاية عن إرهاق الضرائب وجابيها وقد نرى الفكاهة،[٢٦] وله رسائل يشفي بها شفاءً لأصدقائه من الله.

٢٢- الوضم: خشبة الجزّار التي يقطع عليها اللحم.

٢٣- الثعالبي، المصدر السابق، ص ٢٢٣، ٢٢٥.

٢٤- رسائل ...، ص ٢٤.

٢٥- المصدر نفسه، ص ٣٢.

٢٦- المصدر نفسه، ص ١٠٧.

الجمل الابتدائيّة

ليس للخوارزمي صيغة معينة يبتدأ بها رسائله. ولكن مطالع الرسائل بوجه عام تدور بين أحباء تلك الفترة، يبدأ أبو بكر رسائله عادة بعبارة «كتابي إلى الشيخ.» أو «كتابي إلى ...»[27] ويبدأ كثيراً بالجمل الدعائية كقوله: «أيّد الله...» أو «أطال الله بقاء ...»[28] وأحيانًا يبدأ بصيغة الخطاب، مثلا: «أنت مشغول بنسخ ما استعرته من الرسائل» وأحيانا يبدأ بصيغة الغائب كقوله: «خرج الشيخ من هاهنا» أو «ورد كتاب الشيخ» وأحيانا بصيغة المتكلم، مثلا: قرأت كتاب الشيخ» وقد يبدأ بصيغة الجمع كقوله في رسالة إلى كثير ابن أحمد يعزيه عن ابنة له: «نحن معاشر أولياء الشيخ»[29] أو يبدأ بعبارة «ليت شعري» وأحيانًا يبدأ بالشعر كما في رسالته إلى أبي سعيد أحمد بن شبيب[30] لما شارف نيسابور:

مَرْحَبًا بِالْقَمَرِ الطَّا ... لِعِ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ

مَرْحَبًا بِالْأَسَدِ الْوِرْ ... دِ وَبِالْجَيْشِ اللِّهَامِ

مَرْحَبًا بِابْنِ شَبِيبٍ ... وَأَيَادِيهِ الْجِسَامِ

مَرْحَبًا بِالرَّجُلِ الْأَوْ ... حَدِ مِنْ بَيْنِ الْأَنَامِ[31]

٢٧- المصدر نفسه، ص ٨، ٣٠، ١١١، ١٦٤.

٢٨- المصدر نفسه، ص ٧٩، ٩٩، ٨٢، ٨٥.

٢٩- المصدر نفسه، ص ١٨٠.

٣٠- المصدر نفسه، ص ٤١.

٣١- المصدر نفسه، ص ١٨٧.

وفي رسالته إلى أبي الحسن ابن عبد العزيز قاضي جرجان وقد خرج منها:

فَإِنْ أَكُ قَدْ وَدَّعْتُ نَجْدًا وَأَهْلَهُ فَاَعَهْدُ نَجْدٍ نا عِنْدَنَا بِذَمِيمِ[٣٢]

الجمل الاعتراضية

يستعمل الخوارزمي كثيراً في رسائله البسملة والتحميدات والصلوات. وفي رسالته إلى محمد العلوي يقول فيها: «وهي الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله الطيبين.»، وفي نفس الرسالة يقول: «واستعذت بالله من الشيطان الرجيم[٣٣] وقلت بسم الله الرحمن الرحيم.»[٣٤]

قد يستعمل الخوارزمي التحميد كجملة اعتراضية كما في رسالته إلى أبي الحسن الحاكم، يقول فيها: «فأبى الله تعالى وله الحمد إلا أن يقع في البئر من حفر.»[٣٥]

ويكثر الخوارزمي من الجمل الاعتراضية الدعائية في رسائله، كقوله في رسالته إلى أبي القاسم الدوادي أول ما فتح بمكاتبته «فعذرت نفسي - أعزني الله - قبل أن تعتذر.»[٣٦] وكما في رسالته إلى صاحب جيش خوارزم، يقول فيها: «هذا كتابي - أطال الله تعالى بقاء صاحب الجيش-.»[٣٧]

٣٢- المصدر نفسه، ص ٢٠٦.
٣٣- المصدر نفسه، ص ٣٤.
٣٤- المصدر نفسه، ص ٣٦.
٣٥- المصدر نفسه، ص ٤٤.
٣٦- المصدر نفسه، ص ٤٨.
٣٧- المصدر نفسه، ص ١٨٩.

الألفاظ والعبارات

قد اختار الخوارزمي ألفاظا مناسبة في رسائله باعتناء. وكانت الألفاظ قوية ثابتة. ومن الألفاظ المناسبة للخوارزمي ما كتبه إلى أبي إسحاق يلومه لما نكبه الوزير صاحب بن عباد، يقول فيها:

«وفقك الله في مراجعة الحق لما تستحق به انتهاء محنتك وألهمك في استيفاء شرائط التوبة ما يطرق لك النهوض من صرعتك. ولا خلصك الله مما أنت فيه من جناية غيرك عليك. حتى يخلصك مما كنت فيه من إساءة نفسك إليك فإن نفسك أعظم خصيمك. وإن كانت أصغرهما لديك. وقد شملت أيدك الله بين أن أحرش لك كلامي.»[٣٨]

ونرى في هذه الرسالة ألفاظ التلويم وألفاظا تعبر عن الجو النفسي، وهي: «مراجعة الحق، والمحنة، والتوبة، والجناية، والإساءة، والخصم. قد استعمل الخوارزمي الألفاظ والتراكيب ملائمًا كما قال الزيات أن الخوارزمي كان واقفا على سر اللسان وخواص التراكيب.[٣٩]

ينتقي الخوارزمي في رسائله التعزية ألفاظًا ملائمة تفيد قطعية الموت وغدر الدنيا وخيانتها. مثلاً يقول في رسالة كتبها إلى رئيس طويس يعزيه عن شقيق له:

«كتابي عن سلامة. وما سلامة من يرى كل يوم ركنًا مهدوداً ولحداً ملحوداً وأخا مفقوداً وحوضًا من المنية مورودًا ويعلم أن أيامه مكتوبة وأنفاسه محسوبة. وإن شباك المنايا له

٣٨- المصدر نفسه، ص ٣.

٣٩- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ١٩٣٥، ط. السادسة، ص ٢٣٣.

منصوبة. أف لهذه الدنيا. ما أكدر صافيها وأخيب راجيها وأغدر أيامها ولياليها وأنفص لذاتها وملاهيها وتفرق بين الأحباء والأحباب بالفوات وبين الأحياء والأموات بالرفات. »[٤٠]

ونستطيع أن نقول بسهولة إن الخوارزمي قد انتقى الألفاظ المناسبة لموضوع الموت في هذه الرسالة.

ونرى في رسائل الخوارزمي مصطلحات علميّة: «وكيف يتوسّع في النافلة من تضايق بالفريضة. »[٤١] ونرى هنا مصطلحات «الفريضة والنافلة» وهما من مصطلحات الفقه. ويقول في رسالته جوابًا لمن يشكو من علة الجرب: «الجرب حكة عافى الله سيدي منها مادتها يبوسة وحرارة و قود والتهاب. زندهما الذي يقتبسان منه طعام وشراب و فضلة فدفتها الطبيعة إلى الظاهر. »[٤٢] ونرى هنا مصطلحات طبيّة.

ونرى في رسائل أبي بكر الخوارزمي ألفاظًا معجمية ولكنها قليلة جداً.

الصحة اللغوية والنحوية واستقامة الأوزان العروضية مناسبة للقواعد. لأن الخوارزمي كان أستاذاً وإمامًا في اللغة [٤٣] ومع جودة رسائله فمن الممكن أن نرى عليها شيئًا من الجفاف والجفاء إذا قيست برسائل بديع الزمان الهمذاني فالخوارزمي يتكلف الصناعة في رسائله ولكنه يصيبها غالبًا.[٤٤]

٤٠- رسائل ...، ص ١٥.

٤١- المصدر نفسه، ص ١٧.

٤٢- المصدر نفسه، ص ١١٥.

٤٣- الزيات، أحمد حسن، المصدر السابق، ص ٢٣٣.

٤٤- فروخ، عمر، المصدر السابق، ص ٥٤٥.

ويقلب الخوارزمي في رسائله المعنى على وجوهه المختلفة ويلجأ إلى المبالغة والاستطراد وتأتي الرسائل بعضها طويلة كرسالة كتبها إلى جماعة الشيعة وهي تقع في عشر صفحات،[٤٥] ورسالته التي بعثها إلى أبي الحسن المعروف بالبديهي الشاعر وهي أربع عشرة صفحة.[٤٦] مع أن الرسائل بعضها قصيرة جداً كرسالة كتبها إلى حسين صاحب ديوان الحضرة وهي خمسة أسطر فقط.[٤٧] ورسالته التي كتبها إلى قاضي الري أبي الحسن الهمذاني وهي ثلاثة أسطر فقط.[٤٨]

٤٥- رسائل ...، ص ١٣٠.

٤٦- المصدر نفسه، ص ١٩١.

٤٧- المصدر نفسه، ص ١١٤.

٤٨- المصدر نفسه، ص ١١٨.

خاتمة الرسائل

لا يختم الخوارزمي رسائله بصيغة معينة. أحيانًا يختم بآية مناسبة للموضوع كما في رسالته إلى تلميذه:[٤٩]

«وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ»[٥٠]

ويختم الخوارزمي رسالته أحيانًا بالدعاء كما في رسالته إلى حاجب ركن الدولة:

«فإنّي أسأل الله تعالى أن يطيل بقاء الحاجب مصونًا عن لحظات الغير، حروسًا عن عثرات القدر، أقابله وسعده مقتبل وبابه مستقبل وبنانه بل كمه بل تراب مجلسه مقبل.»[٥١]

يختم الخوارزمي رسالته أحيانًا بدعاء الشر على عكس خاتمة الرسائل بالدعاء:

«لعن الله من يفسد ذات البين ويسعى بالنميمة بين المحبّين.»[٥٢]

وأحيانًا يختم بالحمدلة: «وأنا أقول الحمد لله الذي فرق عنا إخواننا ونحمده.»[٥٣]

ويختم أحيانًا بالنصح والتحذير: «والشجاعة في غير مكانها خرق والجلادة على ما لا يقتضي الحال حمق.»[٥٤]

٤٩- رسائل ...، ص ١٢.

٥٠- القرآن الكريم، سورة الشعراء، آية ٢٢٤-٢٢٦.

٥١- رسائل ...، ص ٧٦.

٥٢- المصدر نفسه، ص ٩٦.

٥٣- المصدر نفسه، ص ٤٥.

٥٤- المصدر نفسه، ص ١٠٠.

ويختتم الخوارزمي رسائله غالبًا بعبارات معهودة كعبارة «والسلام» أو «إنشاء الله تعالى»[55]

وأحيانًا يختتم رسالته بالشعر كما في رسالته إلى وكيل الوزير ابن عباد:

كَفَى حُزْنًا أن لا صَدِيقٌ وَلَا أَخٌ ... يُفِيدُ غِنَاءً لَا يُدَاخِلُهُ كِبَرُ

وَإِلَّا الْتَوَى أَوْ ظَنَّ أَنَّكَ دُونَهُ ... وَتِلْكَ الَّتِي جَلَتْ فَمَا عِنْدَهَا صَبْرُ

فَلَا نَالَ فَوْقَ الْقُوتِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... صَدِيق وَلَا أَوْفَى عَلَى غَيْرِهِ الْيُسْرِ

وَمَا ذَاكَ إِلَّا رغبة فِي وِصَالِهِ ... وَ إِلَا حَذَاراً أَنْ يَمِيلَ بِهِ الدَّهْرُ[56]

وفي رسالته إلى تلميذه:

وَفَارَقْتُ حَتَّى مَا أُبَالِي مَنِ انْتَوَى ... وَإِنْ بَانَ جِيرَانٌ عَلَيَّ كِرَامٌ

فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي عَلَى النَّأْيِ تَنْطَوِي ... وَعَيْنِي عَلَى فَقْدِ الصَدِيقِ تَنَامُ[57]

أسلوب الخوارزمي وسلاطة لسانه

كان لسان الخوارزمي شديداً يقول ما تمناه بشكل واضح. وحينما نكب الوزير الصاحب ابن عباد حاجبه أبي إسحاق كتب الخوارزمي رسالة إلى الحاجب يؤنبه ويعاتبه:

٥٥- المصدر نفسه، ص ٢١، ١٤٦.

٥٦- المصدر نفسه، ص ٤٧.

٥٧- المصدر نفسه، ص، ٥١.

« ... فاتصلت من ولي نعمتك برجل لو اتصل به الادبار لتقدم الإقبال، ولو خدمه النقص لفضل الكمال، ولو تعرف إليه الجماد لنطق بجده. ولو استجار به أمس الدابر لرجع بسعده. فما هو إلا أن نسبت إليه. وحسبت في آثار يديه حتى قاتلت الأيام بسلاحه وطرت إلى المنى والمطالب بنجاحه وحتى طمحت إلى أمور كنت عنها مطروفًا. و خطوت إلى أشياء كنت عنها قطوفًا... »[٥٨]

وأقسى رسالة للخوارزمي تلك التي كتبها إلى أبي الحسن المعروف بالبديهي الشاعر وفيها سب و سخرية وشماتة وتهكّم:

« ... فها أنا المظلوم الظالم والمخاصم المخاصم. ظلمتني بلؤمك فظلمت الكلام بلومك. وخاصمتك في وجهك فخاصمني العقل في عذلك. فيا من جمع على مصيبتين ووضعني على طريق الظلم من جانبين ويا من أبت العجائب فيه أن تردني إلا من طرق شتى وأن تقع إلا مثنى مثنى. وليس محنتي فيك بأعظم من محنة الحق الذي لم تزل تعبث به حتى لو تجسم نفسًا لسعيت في ذمها أو تمثل داراً لجهدت في هدمها. كأنك لم تخلق إلا لتطمس عين النور وتغلب أعيان الأمور فتجعل الضوء ظلمة وتعكس البدعة سنة حتى كأن سوفسطا استخلفك علي جحد ما يدرك عيانًا ويعرف إيقانًا، فأنت وارثه في الباطل. وناصر جهله على كل عاقل. وحتى كأن الله أنزل عليك قرآن ضلالة، وبعث إليك رسول جهالة... »[٥٩]

٥٨- رسائل ...، ص ٣.

٥٩- المصدر نفسه، ص ١٩١.

التصنع وتصنيع الخوارزمي

فنون أدبية في رسائل الخوارزمي

تنوعت الكتابة في العصر العباسي وتعددت أساليبها واختلفت خصائصها وتعددت الرسائل وأخذ كتّاب النثر في القرن الرابع الهجري يبالغون في تنميق النثر حتى استطاعوا أن يحدثوا مذهبًا جديداً هو مذهب التصنيع، ونقلوا الكتابة من أسلوب الصنعة إلى أسلوب التصنيع. وهذا المذهب كان يعتمد على السجع والمحسنات البديعية وأخذت تتحول عباراته إلى ما يشبه القطع الزخرفية الدقيقة.[٦٠]

وتطوّر مذهب التصنيع تطوّراً ووصل إلى الغاية التي كان يهدف إليها منذ القرن الثاني، وهي غاية كلها زخرف وتصنيع. ومن أهم الكتاب من طائفة هذا المذهب، أبو الفضل محمد بن الحسن ابن العميد والصاحب ابن عباد وإبراهيم بن هلال الحراني الصابي.

ولم يقف مذهب التصنيع وما يحتوي من السجع والمحسنات البديعية عند كتاب الدواوين بل انتشر انتشاراً بين غيرهم من كتاب الرسائل الشخصية وعلى رأسهم أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني و أتبعا هذا المذهب من السجع والبديع أو من التصنيع والترصيع.[٦١]

٦٠- كحالة، عمر رضا، الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، دمشق، ١٩٧٢، ص ١٩٤.

٦١- المصدر نفسه، ص، ١٩٧.

ويلاحظ أن أبا بكر الخوارزمي من أصحاب مذهب التصنيع والسجع والبديع. وكان يعمد على تعقيد أسلوبه الزخرفي أو إلى اتّخاذ فنون جديدة في نثره لا تمت إلى التجميل والتصنيع بصلة، إنما تمت إلى التكلف. وكان كتاب الرسائل ومنهم الخوارزمي يتناولون موضوعات تتألف غالبًا عتاب أو تهنئة أو اعتذار أو رثاء أو مدح. وفي الحقيقة أن هذه الموضوعات محدودة. فكيف يصنع الكاتب الذي يريد أن يثبت براعته الأدبيّة؟ وفي هذه الحال أمام الكاتب طريقتان: أولها الاقتصار على سطور معدودة وثانيها إطالة الكلام وتزيينه بالمبالغات. لا يعطي الاقتصار على سطور قليلة فرصة لإثبات تفوق الكاتب وبراعته، إذن لا بد للكاتب من أن يمدد كلامه بالمبالغات والتهويلات ويعتب الألفاظ والعبارات.

كان يعتمد الخوارزمي في تصنيعه على طريقة ابن العميد متوخيا جزالة الألفاظ. وكان يحاول أن يبلغ من ذلك أوسع درجة ممكنة. وكان يقصر الأسجاع و يخلع عليها ضروبًا من الرشاقة بفضل ما يلجأ إليه من الصور والجناس والطباق. وكل ذلك ليقع على أبدع ما يمكن من تحف في هذا الباب حتى يصل إلى غايته من الحلية والتجميل. وعلى هذا النمط تكون العبارات زخارف مستقلة بما تحل من وشي البديع وزينته.

لا يهدف الخوارزمي في رسائله إلى التعبير عن معان خاصة بل يهدف بها إلى التعبير عن غايات تعليمية. ويعمد إلى ضروب من المبالغات والتهويلات وكأنما قصر الموضوعات التي يتناولها هي التي جعلته يعبر بهذا الشكل، وفي رسالته يصف قصيدة بعث بها أحد تلاميذه:

«وصلت القصيدة الغراء الزهراء. فكانت أرق من الماء بل من الهواء وألذّ من الصهباء وأسر من اللقاء بين الأحباء ومن هجوم السمراء. غب الضراء وأعذب من مغازلة النساء ومن مجالسة الندماء ومن مساعدة القضاء ومن معاقرة الشراب على الغناء. ومن استماع فوائد الحكماء. و خطب البلغاء وقلائد الشعراء. ومن أخذ جوائز الأمراء وتحصيل مراتب الخلفاء. فكانت معانيها أبدع من الوفاء وأعزّ من السخاء وأعزب من النصفة في الأصدقاء ومن الأمانة في الشركاء بل أغرب من المغرب العنقاء. وألفاظها أحسن من البور في الظلماء. وأطيب وصال الحسناء ومن افراع العذراء.»[٦٢]

نرى في هذه الرسالة المبالغات والتهويلات، وهذا أسلوب جديد، أسلوب الرسائل الشخصية عند أبي بكر الخوارزمي الذي اشتهر بالبلاغة في زمانه، لأنه كان يسوق في رسائله من مثل هذه العبارات المرصونة التي تدل على المبالغة كما تدل على ضرب من المبالغة في استعمال الجمل والعبارات المسجوعة. وهكذا جمع الخوارزمي في رسائله صور التعبير كلها ليحفظها الأدباء. وكان الأدباء يقرؤون هذه العبارات ليحوكوا على مثالها لأنفسهم وقد هيّأت هذه الحال لظهور فكرة الأساليب المحفوظة التي تورث وتردّد بين الكتّاب، وشاعت هذه العبارات المحفوظة في اللغة العربية.

وفي مثال آخر يقول الخوارزمي في رسالته إلى تلميذ له فوض إليه أشغاله، يصف الخوارزمي أيامه الماضية:

٦٢- رسائل ...، ص ٣٧.

«كانت أرق من حاشية البرد وأحسن من طلوع السعد وأحلى من إنجاز الوعد وأعذب من القند بل من النقد وأعبق من الورد، وما أردت الأورد الخد بل من المسك والند، وأطيب من القرب بعد البعد ومن الوصل في أثر الصد بل كانت أرق من نسيم الزهر في السحر ومن قضاء الوطر على الخطر بل كانت أقصر من ليل السكارى، أو نهار الحيارى.»[٦٣]

ونرى في هذه الرسالة تعبيرات تبلغ درجة التهويل والمبالغة في وصف الأيام الماضية وما كان من حسنها وجمالها. أطال الخوارزمي نعت الأيام الماضية بالأسجاع التي تتألف من أسجاع دالية أولا حتى إذا ما أثبت مهارته في استعمال الدال وأسجاعها انتقل إلى الراء واستخدم هذه الأسجاع كلها بالجناس والطباق. وأصبح هذا الأسلوب الذي يعتمد على ترصيع العبارات أصلاً من أصول صناعة أبي بكر في رسائله. وهذه الحال الجديدة أخذت تظهر في مذهب التصنيع والعبارات المرصوفة التي يجتمع بعضها على بعض. وفي هذا التصنيع أسجاع وضروب من البديع فقط.

ونجد في رسائل أبي بكر الخوارزمي فنونًا أدبية منها تشبيهات واستعارات وكنايات وجمع الخوارزمي صوره الخيالية بين المحسوسات والمعنويات. وجمع أحيانًا بين المحسوس والمعنوي في تشبيهاته كما يصف أيامه الماضية السعيدة: «كانت أرق من حاشية البرد وأحسن من طلوع السعد.»[٦٤]

٦٣- المصدر نفسه، ص ١١.

٦٤- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ونرى في كتابات الخوارزمي تشبيهات مبتكرة تبرز فيها النظرة الدقيقة وتحيط بجوانب التشبيه، كما في تشبيه الحر بالزجاج إن يستعمل برفق زين المجالس، وإن خرق به انكسر وأتعب الجابر، يقول الخوارزمي:

«وإنما الحر زجاج رقيق ثمين، إذا رفق به واستعمل مثله زين المجالس وامتع المجالس. وكان مالا إلا أنه جمال وجمال إلا أنه مال. وإذا خرق به انكسر فعقر الكاسر وأتعب الجابر.»[٦٥]

يستعمل الخوارزمي أحيانًا تشبيهين متضادين للكشف عن حالتين مختلفتين، كتب رسالة إلى خوارزمشاه يشكو فيها من الظلمات:

«فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً تخاتلوني سراً. حتى خرجت منها أعرى من حية بعد ما كنت أكسى من بصلة وافقر من الحجر بعدما كنت أغني من الكعبة وأعطل من المحرم بعدما كنت أحلى من الشمسة قد كسرت كسر الجوز وقشرت قشر اللوز.»[٦٦]

يصور الخوارزمي هنا نفسه في حالتين وهما الغنى والفقر وأتى بتشبيهات رائعة.

وتبدو سعة ثقافة الخوارزمي في بعض تشبيهاته الضمنية، على سبيل المثال:

«والله ما الذئب في الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين. ولا السوس في الخز في الصوف عنده إلا من المحسنين. ولا الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق إلا أول العادلين. ولا يحسب الأثيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلا من النبيين والصديقين. ولا فرعون في بني

٦٥- رسائل ....، ص ١٢٥.

٦٦- المصدر نفسه، ص ١٨٦.

إسرائيل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقربين. »[٦٧]

وفي رسائل الخوارزمي كنايات مبتكرة وتقليديّة. وفي قوله عن الكرم يقول:

«وأحمل حوائجي منه على جبل الجود الذي لا تحركه المطالب. ولا تثقل عليه الرغبات والرغائب. بل على بحره الذي لا ينزفه الاستقاء ولا تكدره الدلاء. ولا يرى قعره. ولا يدرك غوره. وإنما يصير على حوائج الناس. ويلتذ باستماع صوت رجاء الأضراس. »[٦٨]

في هذه الرسالة كنايات عن الكرم. والبحر الذي لا تكدره الدلاء كناية شائعة.

بالإضافة إلى ذلك نرى في رسائل الخوارزمي مقتبسات من القرآن والحديث والأبيات. ومن اقتباسه من القرآن في رسالته إلى الحاجب أبي إسحاق: «هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ. »[٦٩] ومن اقتباسه من الحديث: «فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلّم يُحِبُّ الْفَأْلَ وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ. »[٧٠]

ويقتبس الخوارزمي من الشعر بل إنه يعترف بأنه يسرق من الكتاب الذين سبقوه إذ يقول في رسالته إلى أبي محمد العلوي: «فما زلت أسرق من هذا كلمة وأنظر من ذاك فقرة أستعير من هناك نادرة وثيقة. أغضب الأحياء على بيانهم وأنبش الموتى من أكفانهم. »[٧١]

ويقول أيضًا في رسالة أخرى كتبها إلى قاضي الري أبي الحسن بن شادان:

٦٧- المصدر نفسه، ص ١١٢.
٦٨- المصدر نفسه، ص ١٣-١٤.
٦٩- سورة الرحمن، آية: ٦٠.
٧٠- رسائل ...، ص ٨٩.
٧١- المصدر نفسه، ص ٣٦.

«بل كتابي وأنا في سلامة إلا من الحر الذي يذيع دماغ الضب. ويشبه قلب الصب.وهذا سرقته من رسائل الوزير الجليل ابن عباد وليس بأول غارة الكردي على الحاجي ولا بأول أخذ الطرار. مال التجار. ولا بأول تجمل المكاتب بكلام الكاتب. وهل عبرنا منذ عرفناه إلا عن بيانه. وهل أجرينا أقلامنا إلا على آثار فلمه وبنانه.»[٧٢]

ونرى في كتابات الخوارزمي ميلاً إلى التكلف في التعبير واضحًا. ونرى هذا التكلف نفسه في وسائل التصنيع كقوله في أحد الرسائل:

«ولقد أراحني الشيخ ببره بل أتعبني بشكره وفرغني بصادق قيامه. لا بل شغلني بتعديد إحسانه وإنعامه. وخف ظهري من ثقل المحن لا بل أثقله بأعباء المنن. وأحياني بتحقيق الرجاء. لا بل أماتني بفرط الحياء. فأنا له بعد اليوم عتيق. وأسير بل طليق.»[٧٣]

وعلى هذا الغرار نرى دائمًا في كتابات الخوارزمي ضروبًا من التصنع تنفذ إلى صناعة الخوارزمي وهي صناعة كانت قائمة على التصنيع ولكنها أخذت تظهر فيها بعض شيات التصنع وسماته. مما يدل على أننا وصلنا من التصنيع إلى هذه النقطة. وعندما وصلنا إلى أواخر القرن الرابع نجد الرغبات تتكامل للخروج من مذهب التصنيع القديم إلى مذهب جديد من التصنع وهو مذهب كان قائمًا على التعقيد في الأسلوب. ولا شك في أن الخوارزمي يعبر عن شئ من هذه الرغبات على الرغم من أن فنه يندمج في مذهب التصنيع.[٧٤]

٧٢- المصدر نفسه، ص ٧٩.

٧٣- المصدر نفسه، ص ١٠٦.

٧٤- شيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص ٢٣٨.

السجع والبديع في رسائل الخوارزمي

كان التسجيع أحد شروط التراسل وهو من ثمار التأنق. فظهر التأنق في الرسالة المسجعة أكثر من غير المسجعة. وتدل هذه الرسالة من جانب آخر على تفرغ كاتبها للزخرفة. إذا أتقنت صياغة السجع يكسب المعنى قوة. وأتقن أدباء القرن الرابع السجع فرغب الناس فيه.[٧٥]

وأكثر الكتاب في كتاباتهم من الجناس. وهذا من قبيل الترصيع للآنية أو الوشي للثوب. لا يكثر الوشي للثوب نفعًا لمن يلبس من حيث الغرض المطلوب منه كالستر والدفء ولكنه يزيد جماله. والبديع والجناس لا يزيد معنى العبارة لكنه يزيدها رونقًا وخاصة مع السجع. مثلاً في رسالة الخوارزمي إلى نائب الوزير الصاحب بن عباد:

«كتبت إلى الأستاذ معاتبة مرة، ومستعتبة كرة، فيما وجدت للعتاب اعتابًا. ولا قرأت من الكتاب جوابًا، وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني، وعن تواضع لا يضعه ويرفعني.»[٧٦]

لو كتبها أبو بكر رسالة بسيطة لما أثرت في النفوس كهذا.

وتكلّف الكتاب الصناعة اللفظية وأغرقوا في ألوان البديع فجعلوه منهجًا عامًا يتقيدون به حتى أضاعوا المعنى في سبيل طلب البديع. ونقل الكتاب إلى النثر كثيراً من محاسن الشعر كالاستعارة والتشبيه والخيال. وبالإضافة إلى ذلك أخذوا يكتبون في موضوعات كانت خاصة

٧٥- زيدان، جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ص ٥٧٦.

٧٦- رسائل ...، ص ٢٢.

بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر وغيرها.[٧٧]

وبدأ كل كاتب يحاول إيتاء الأسجاع الجيدة لإثبات براعتهم ومهارتهم وبالغوا في ذلك. والتزم أبو بكر الخوارزمي السجع التزامًا مطلقًا ولم يخرج عنه إلا في قليل من الأحيان.[٧٨] ويبدو في رسائل الخوارزمي سيطرة الأسجاع بارزة. إن الأستاذ استعمل الأسجاع كثيراً حتى نستطيع أن نقول ليست له جملة بدون مسجوعة إلا قليلاً وأسجاع الأستاذ قصيرة، كما في رسالته إلى رئيس بهراه. يقول فيها: «صحيح العرض والجسد وعليل الخاطر والجلد.»[٧٩]

وإذا درسنا رسائل الخوارزمي نجد فيها خصائص مذهب التصنيع لعصره في صورة بالغة من السجع والبديع، مثلاً في رسالته إلى أبي علي البلعمي لما طال عتابه وكثرت رقاعه:

«كيف يقدر أبقى الله الشيخ على الدواء. من لا يهتدي إلى وجه الداء. وكيف يداري أعداءه من لا يعرف الأصدقاء من الأعداء. وكيف يعالج علة القرحة العمياء. أم كيف يسري بلا دليل في الظلماء. أم يخرج الهارب من بين الأرض والسماء. الكريم أيد الله تعالى الشيخ إذا قدر غفر وإذا أوثق أطلق. وإذا أسر أعتق. ولقد هربت من الشيخ إليه وتسلحت بعفوه عليه. والقيت ربقة حياتي ومماتي بيديه. فليذقني حلاوة رضاه عني. كما أذاقني مرارة انتقامه مني. ولتلح على حالتي غرة عفوه. كما لاحت عليها مواسب غضبه وسطوه. وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال. وإن العبد لئيم الظفر إذا نال استطال. وليغتم التجاوز عن عثرات الأحرار.

٧٧- إسماعيل، عناد عزوان ، القيسي، نوري حمودي ، **الأدب العربي**، بغداد، ١٩٧٤، ط. الرابعة، ص ٣٠٨.

٧٨- كحالة، عمر رضا، **المصدر السابق**، ص ٢٠١.

٧٩- **رسائل** ...، ص ١٨.

ولينتهز فرص الأقدار. وليحمد الله تعالى الذي أقامه من يرجى ويخشى. وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتى. وأخلق العالم وذكرها طرى. فجعله في الميلاد كريمها وسليلها. وفي الرتبة قدوتها وجليلها. وليعتقد أنه قد خابه من استتر. ولم يذنب إليه من اعتذر. وإن من رد عليه عذره فقد خرج إلى الشجاعة بعد الجبن. وأخرج ذنبه إلى صحن اليقين من سترة الظن. وفق الله تعالى الشيخ لما حفظ عليه قلوب أوليائه وعصمه بما يزيد به في جماجم أعدائه. وليس بين الموالات والمعادات إلا لقية بشعة أو لفظة قذعه.»[٨٠]

نرى في هذه الرسالة اعتماد الخوارزمي على السجع اعتماداً مطلقًا. وهو ينتقي ألفاظه كما ينتقي أسجاعه ويأتي بالسجع القصير وأحيانًا يأتي بالسجع الطويل كما ورد فيها:

«وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال، وأن العبد لئيم الظفر إذا نال استطال.» ونرى هاتين السجعتين طويلتان.

ويلاحظ في رسائل الخوارزمي كثرة الأسجاع وتعاقبها كقوله في رسالته إلى أبي الحسن الحكمي:

«خرج الشيخ من ها هنا على حالة. إن كان الذنب فيها له فقد غفرت وعذرت، وإن كان لي فقد استغفرت واستعذرت.»[٨١]

نرى هنا أربعة أسجاع، وفي رسالته إلى أبي القاسم الدوادي:

«والله لو كان من الورق أعز من الوفاء وأغرب من السخاء، والقلم أغلى من الماء في

٨٠- رسائل ...، ص ٩٦.

٨١- المصدر نفسه، ص ٢٣.

وسط الدهناء، وأقل من المغرب العنقاء وأعوز من الكمال في النساء، ومن الصدق في الشعراء، من ترك الريا في القراء والحبر والمداد أضيق من الإنصاف في الأصدقاء، وحسن العشرة في الندماء، بل أضيق من أسافة الشركاء.»[٨٢]

وهنا أحد عشر سجعًا جاء على العاقب.

ويلاحظ اهتمام الخوارزمي بالمزاوجة بين الجمل إلى جانب اهتمامه بالسجع. والمزاوجة أن تتفق الجملتان في النغم والموسيقى. وتبدو المزاوجة هذه في الرسائل أنغامًا موسيقية. على سبيل المثال نجدها في رسالته إلى تلميذه واضحة:

«وإني لأظلم الفراق إذا شكوته واتعنق الدهر إذا هجوته.»[٨٣]

ويستخدم الخوارزمي في رسائله المحسنات البديعية ولا سيما التصوير والطباق والجناس كما يستخدم السجع، مثلاً في رسالته إلى الحاجب أبي إسحاق:

«ولا رسول أسرع من دهر ولا مستحث أوحى من يسر بلا عسر.»[٨٤] نرى هنا طباقًا وجناسًا بين يسر وعسر، ويأتي الخوارزمي أحيانًا بجمل متعاقبة فيها الطباق أو المقابلة كقوله:

ووافقت مني قلبًا معموراً بل خربا بالهم وجسمًا مفضلا بل مكدوداً بالسقم.»[٨٥]

وفي رسالته إلى رئيس طوس يقول فيها:

٨٢- المصدر نفسه، ص ٤٨.
٨٣- المصدر نفسه، ص ١٠.
٨٤- المصدر نفسه، ص ٤.
٨٥- المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

«ورد علي خبر وفاة فلان. فدارت بي الأرض حيرة. وأظلمت في عيني الدنيا حسرة. وملك الوله والوهل قلبي وسواسُ فكره. وتذكرت ماكان يجمعني وإياه من سكرى الشباب والشراب. »[٨٦]

وعلى هذا الغرار يعتمد الخوارزمي السجع والبديع في تصنيعه، ويحاول أن يبلغ من ذلك أوسع درجة من التجميل. ويقصر الأسجاع غالبًا ويخلع عليها ضروبًا من الرشاقة. ونرى في كتابات الخوارزمي أن التصنيع بلغ إلى غايته من الحلية والتجميل.[٨٧]

٨٦- المصدر نفسه، ص ١٥.

٨٧- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، القاهرة، ب.ت. ص ٢٣٤.

رسائل الخوارزمي من حيث انعكاس الحياة السياسية

نرى في رسائل الخوارزمي أنه اضطرب من الحياة السياسية في عصره وكانت الصراعات والدسائس كثيرة عند الخلفاء والحكام. مثل ذلك حادثة نكب الوزير الصاحب بن عباد حاجبه. ففي تلك الفترة زاد الاعتقال والسجن ومصادرة الأموال والحريات.

وتأثر الخوارزمي نفسه من هذه الحوادث فسجن وصودرت أمواله كما ذكرنا سابقًا. وفي رسالته إلى صاحب الديوان بالحضرة يتحدث فيها عن تعرضه للمصادرة وهربه من خراسان:

«... وضرب بين لساني وبينهم ستراً ثخينًا ومد عليهم دون استبطائي عتابي كنا كنينًا ومن أخر جني من صيانة الدهقنة...

... على أن خروجي من خراسان إلى غيرها وضع من أهلها فلو ارتبط الجواد حق ارتباطه لما عار. ولو أحسن إلى البازي لما طار. و إن مقامي حيث خيمة محنة تدل على فهم الكرام الأجاود.»[٨٨]

وهناك ظاهرة أخرى هي الشعوبية، على الرغم من أن الخوارزمي فارسي الأصل نراه يحب العرب ويفضلهم على العجم، على سبيل المثال يقول في رسالته إلى أبي القاسم الدوادي:

«وتذممت من أن أعارض بلسان خوارزمي وعقل طبري وخاطر أعجمي من لسانه عربي وعقله قرشي ونشؤه مكي وظرفه مخزومي. فعدلت عن المعارضة إلى المناقلة.»[٨٩]

٨٨- رسائل ...، ص ٦٥.

٨٩- المصدر نفسه، ص ٤٩.

وكان الخوارزمي يعتقد بحرية الرأي وحرية الكاتب والشاعر في التعبير عن شاعره وآرائه ويقول في رسالته إلى محمد العلوي:

«وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان. وأسلف الشكر قبل الإحسان. وقد كنت رأيت حاكمًا يحجر على يتيم أو معتوه في وفره. ولم أر أميراً يحجر على كاتب في كتاباته أو على شاعر في شعره.»[٩٠]

٩٠- المصدر نفسه، ص ١٠.

رسائل الخوارزمي من حيث انعكاس الحياة الاجتماعية

في عصر الخوارزمي واجه بعض الكتاب في كتاباتهم الفقر والبؤس والتحايل على كسب العيش. كان الأغنياء يصادرون وكانت الضرائب ترهق التجار ولا يجد الأدباء والعلماء ما يأكلونه إلا إذا اتصلوا بأمير، فاتخذوا وسيلتهم في كسب العيش والتوسل عن طريق الأدب الشعبي بعضًا.[٩١]

تناول الخوارزمي في رسائله مشاكل اجتماعية منها محنة الفقر ومرارتها. ويبدو أنه نشأ فقيراً وذاق مرارة العدم والفقر. وفي رسالته إلى أبي الحسن عبد العزيز قال:

«ومن أنقذ إنسانًا من الفقر وانتشله من مخالب الدهر وفكه من إسار العصر، فقد أعتقه من الرق الأكبر. ونجاه من الموت الأحمر والرق رقان: رق الملك ورق الهوان. والأسر أسران: أسر العدو وأسر الزمان.»[٩٢]

ومن أجل ذلك كان الخوارزمي يحب المال ويحرص عليه ويرى الفقر رقا وعبوية.

وعلى العكس من ذلك يعترف الخوارزمي في رسالته إلى خوارزمشاه أن له أموالاً طائلة:

«هذا وقد علم الأمير أن والدي رحمه الله تعالى خلف علي، ما لو خلفه على أهل بلد لكفاهم، ولو فرقه على فقراء الدنيا لأغناهم. فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً وتخاتلني سرا حتى خرجت منها أعرى من حية بعد ما كنت أكسى من بصلة وأفقر من الحجر

٩١- كحالة، المصدر السابق، ص ٣١.

٩٢- رسائل ...، ص ١٠٦.

بعدما كنت أغنى من الكعبة.»[٩٣]

على الرغم من أنه حصل على أموال طائلة كان يشح بالمال ولا يعطي السائل.

عدم الوفاء من المظاهر الاجتماعية في رسائل الخوارزمي وهو يشكو في رسالته إلى سعيد رجاء بن الوليد الإصفهاني:

«وأنا وإن كنت شاعر اللسان فلست شاعر الخلق، ولا شاعر الوفاء والصدق، ولا شاعر الصداقة والود، ولا شاعر الديانة والعقد. لا تتلون أخلاقي ألوانًا ولا أكون على صديق ومن يشكو إلى زمانًا ولا أكون أخاه أيام دولته وعدوه أيام عطلته. وقد عشت المروءات وانثلمت المودات. ومات الوفاء والثبات.»[٩٤]

كما يشكو الخوارزمي من عدم الوفاء يفخر بوفائه لأصحابه وثباته على حبهم. يقول في ذلك:

«فكم من حر فضله ثم ثلبه. وكم من عرض كساه ثم سلبه. وكم من صفحة أكل منها ثم بصق فيها. ولكن في قميص أبي بكر رجلا إذا أعطى لم يرتجع، وإذا طلق لم يراجع، وإذا بنى لم يعد بنانه بالهدم، وإذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم.»[٩٥]

ويبالغ الخوارزمي في إفادة حبّه لأصدقائه ويحقر نفسه ليؤكد مودتهم ويكتسب رضاهم. مثلاً يقول في رسالته إلى صاحب البريد بالري:

٩٣- المصدر نفسه، ص ١٨٦.
٩٤- المصدر نفسه، ص ١٤٩،
٩٥- المصدر نفسه، ص ٦.

«قد كنت أحسب الفراق يسير الخطب، هين الواقع، قليل العبء والثقل، خفيف الكل ولظل حتى دهيت بفراق سيدي فعلمت من مقدر الفراق ما كنت جهلته. ووجدت من شخصه ما كنت أضللته وعلمته من طريق المطالعة والمعرفة، وإنما كنت أراه من طريق التخيل والصفة وتذكرت قول جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم هذا الفراق فعلت ما لم أفعل[٩٦]

لكن الخوارزمي لم يتمكن من أن يحافظ على هذه الصداقات وربما كان السبب في عدم دوام هذه الصداقات غروره واعتزازه الزائد بنفسه وسلاطة لسانه.

وكان يعيش الخوارزمي في بلاط الرؤساء ويرى سيطرة النفاق والمؤامرات عليهم ويسخط على المنافقين ويهاجمهم. ومنهم الأدباء الذين يتملقون كأبي الطيّب المتنبّي. عاب عليه الخوارزمي تملقه وعدم وفائه لسيف الدولة.»[٩٧]

وتناول الخوارزمي في رسائله شؤونًا اجتماعية وكتب التعزية في الوفاة والتهنئة في الشفاء من علة أو النجاة من سجن وكتب الشكر على النعم والشكاية في المظالم وفي إرهاق الضرائب وكتب في الاعتذار وما إلى ذلك كما ذكرنا سابقًا.

٩٦- المصدر نفسه، ص ٥٣.

٩٧- راجع لرسائل ...، ص ٦.

الخاتمة

كان أبو بكر الخوارزمي أديبًا فائقًا وعلمًا مفرداً وقف حياته على الأدب إذ رحل إلى بغداد وحلب في طلب العلم مع أنه كان من أثرياء بلده. وكان إمامًا في اللغة، وأشعار العرب، عارفًا بأنساب وأخبار العرب، كثير الحفظ للشعر رجلا مثقّفًا حيث أنه يذكر المصطلحات الفلسفية والطبية والفقهية والفنية في رسائله وأستاذاً لعصره، تبدو سعة ثقافته وعمق نظرته في رسائله بسهولة وهو أحد الكتاب البارزين مثل الصاحب ابن عباد والهمذاني وأبي إسحاق الصابي في القرن الرابع الهجري.

وكان الخوارزمي شاعراً يتحدث في مختلف جوانب الحياة ويعبر عن مختلف المشاعر والأحاسيس. احتل مكانة عالية في حلب ونيسابور وسجستان وطبرستان وشيراز وشاعت شهرته في الآفاق.

وكان رجلاً ذا شخصيّة قويّة احترمه الجميع واقترب منه الأمراء والوزراء والعلماء والأدباء وكثير من رجال الدولة وعلى الرغم من كل ذلك التقدير والاحترام لم يكن أبو بكر وفيًا لأصدقائه ولجميع من ساندوه في وقت الحاجة، وكان لا يدوم على ود ولا يستقر على حال، لأن عواطفه متقلبة، وكان عنيف الخصومة وسليط اللسان.

وفي القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه الخوارزمي من الممكن تقسيم الكتّاب إلى مذهبين: وهما مذهب التصنيع و مذهب التصنع. وكان ابن العميد أستاذ مذهب التصنيع، وكان الخوارزمي جر على إثر ابن العميد وتتبّع طريقته واعتمد في تصنيعه على ما عرف عند ابن

العميد من سجع وبديع.

أما رسائل الخوارزمي فتعد كلها من الرسائل الإخوانية. تناول الخوارزمي في رسائله شؤونًا مختلفة وعبر عن مختلف جوانب الحياة. ومنها اضطرابه من الحياة السياسية في عصره حيث كانت الصراعات والدسائس كثيرة بين كبار الدولة ولهذا السبب هجاهم الخوارزمي فأدّى ذلك إلى مصادرة أمواله وحبسه، وتبدو في رسائله إشارات تاريخية وأدبية وعلمية وفلسفية و اجتماعية. وقد انتقى الألفاظ والعبارات باعتناء، وأتقن التعبير عن آرائه ومشاعره إتقانًا في رسائله.

المراجع

ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن : **اللبـــاب فـــي تهـــذيب الأنســـاب**، ج ٢، بيروت، ب.ت.

....، ..... : **الكامل في التاريخ**، ج ٩، بيروت، ١٩٧٩.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين : **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد)، ج ٣، القاهرة، ١٩٤٨.

ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح : **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (تحقيق محمود الأرناؤوط) ج ٤، بيروت، ١٩٨٩.

Er, Rahmi : **Bedî'u'z-Zamân el-Hemezânî ve Makameleri**, İstanbul, 1994.

اسماعيل، عناد غزوان : **الأدب العربي**، بغداد، ١٩٧٤.

نوري، حمودي القيسي، مخلص

فائق أمين

بروكلمان، جارل : **تاريخ الأدب العربي**، م. عبد الحليم النجار، ج ٢، القاهرة ب.ت.

التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد : **أخلاق الوزيرين**، (تحقيق محمد بن تاوت الطبخي)، بيروت ١٩٩٢.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك : **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، (تحقيق مفيد محمد قميحة)، ج ٤، بيروت ١٩٨٣.

الحموي، ياقوت : **معجم الأدباء**، ج ١-٢، بيروت ١٩٣٦.

الخوارزمي، أبو بكر : **رسائل أبي بكر الخوارزمي**،إستنابول ١٢٩٧

Demirayak, Kenan : "Harizmî, Ebû Bekir", **TDV İslam Ansiklopedisi**, c. 16, İstanbul 1997.

Demirayak, Kenan; Çöğenli M. Sadi : **Arap Edebiyatında Kaynaklar**, Erzurum, 1994.

Rıtter, H. : Hârizmî Abû Bakr", **MEB İslam Ansiklopedisi**, c. 5/1, İstanbul 1988.

الزركلي، خير الدين : **الأعلام**، ج ٦، بيروت ١٩٩٢.

زيدان، جورجي : **تاريخ آداب اللغة العربية**، ج ١، بيروت ١٩٨٣.

الزيات، أحمد حسين : **تاريخ الأدب العربي**، القاهرة ١٩٣٥.

السمعاني، أبو سعد عبد الكريم : **الأنساب**، (تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المقلمي اليماني)، ج ٥، بيروت ١٩٨٠.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن : **بغية الوعات**، ج ١، بيروت ١٩٦٤.

صوى يكيت، عثمان زكي : **الأدب العربي**، إستانبول ١٩٩٣.

ضيف، شوقي : **تاريخ الأدب العربي**، ج ٥، القاهرة ١٩٩٦.

.....، ..... : **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، القاهرة ب.ت.

الفاخوري، حنا : **الموجز في الأدب العربي وتاريخه**، ج ٢، بيروت ١٩٩١.

.....، ..... : **تاريخ الأدب العربي**، بيروت ١٩٦٠.

فروخ، عمر : **تاريخ الأدب العربي العصر العباسي**، بيروت ١٩٩٢.

Goldziher, Ignace (Çev. Azmi Yüksel : **Klasik Arap Literatürü,** Ankara, Rahmi Er) 1993.

كحالة، عمر رضا : **معجم المؤلفين**، ج ٣، بيروت ١٩٩٣.

.....، ..... : **الأدب العربي في الجاهلية والإسلام**، دمشق ١٩٧٢.

مصطفى، أحمد أمين : **أبو بكر الخوارزمي، حياته وأدبه**، القاهرة ١٩٨٥.

المقدسي، أنيس : **الدول العربية وآدابها**، بيروت، ب.ت.

اليافعي، أبو محمد عبد الله : **مرآة الجنان وعبدة اليقظان**، ج ٢، بيروت ١٩٩٧.

دار المشرق : **المنجد في اللغة والأعلام**، بيروت ١٩٩٢.